

المُديرة الإستوائية

١٨٨٩-١٨٦٩

للدكتور محمد سيد محمد

تتناول هذه الدراسة الفترة منذ تقرر ضم المديرية الاستوائية جنوب السودان عام ١٨٦٩ حتى انتزاع امين باشا حاكم المديرية منها عام ١٨٨٩ .

فقد بات من الواضح امام الحكومة الخديوية في مصر انه طالما بقيت بلاد بحر الغزال ودارفور وغندكرو (في اعالي النيل على بحر الجبل) بعيدة عن قبضة الحكومة ؛ فانه من الصعب - ان لم يكن من المستحيل - ابطال تجارة الرقيق^(١) . لذلك يعتبر عام ١٨٦٩ من الاعوام الحاسمة في تاريخ الرق في السودان إذ تقرر فيه ضم تلك البلاد التي تعتبر من المصادر الرئيسية للرقيق للقضاء على الرق نهائياً .

النقط العسكرية يفصل بين كل منها مسيرة ثلاثة أيام ، وأن يعمل على إبطال صيد الرقيق أو الاتجار فيه^(٣) .

وقد لقي تعيين بيكر معارضة شديدة من السلطات الرسمية في مصر ، لأن الرق كان من الأمور المعترف بشرعيتها ؛ فإبطال تلك التجارة على يد مسيحي كان كفيلاً بإثارة الشعور الديني^(٤) ؛ فضلاً عن أنه كان بمثابة تحدٍّ واعتداء

في جبهة بحر الجبل وغندكرو أنيطت هذه المهمة إلى السير صمويل بيكر Samuel Baker بناء على نصيحة أمير ويلز ولي عهد إنكلترا (الذي أصبح فيما بعد الملك إدوارد السابع)^(٢) . وقد منح الخديو إسماعيل بيكر سلطات مطلقة في المناطق الواقعة إلى الجنوب من غندكرو حتى خط الاستواء ، وعهد إليه بإدخال الوسائل المشروعة وإنشاء الملاحة في البحيرات العظمى الاستوائية ، وإقامة سلسلة من

(٣) انظر نص العقد المبرم بين الخديو إسماعيل وبيكر في ٢٧ مارس ١٨٦٩ نقلًا عن وثائق عابدين في شكري : الحكم المصري في السودان القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٧ ، انظر أيضاً :

Theobald, The Mahdiya, London 1951, p. 16.

Holt, op. cit., p. 26.

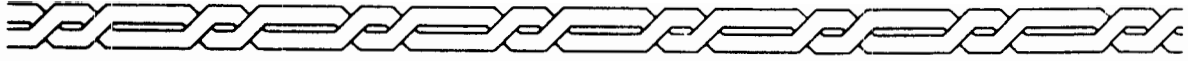
(٤)

(١) شكير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، القاهرة ١٩٠٣ ، ج ٣ ، ص ٥٣ ؛ انظر أيضاً :

Shukry, The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan, Cairo 1938, p. 140; Holt, The Mahdist State in the Sudan, Oxford 1958, p. 26.

Allen, Gordon and the Sudan London 1931, p. 1.

(٢)



مصلحة بلاده في استعمار تلك المناطق .

وكان سير صمويل بيكر رجلاً مغروراً^(٣) ، تعوزه اللباقة والسياسة وحسن التصرف^(٤) ؛ إذا صادف عصياناً أو تمرداً ، لجأ إلى القوة والبطش حتى تحولت بعثته إلى حملة عسكرية صغيرة .

واعترف الكولونيل تشارلز غوردون - الذي خلف بيكر - بكراهية الأهالي الشديدة لسلفه فقال « إن أكبر صعوبة هي استعادة ثقة الأهالي مرة ثانية ؛ فقد لقوا معاملة قاسية ، ومن الغريب أن الكراهية الشديدة هناك لبيكر »^(٥) .

ويمكن تلخيص نتائج حملة بيكر في أنها استطاعت أن تقيم مراكز عسكرية بين غندكرو وفاتيكو وفويره ، غير أنها فشلت في تحقيق أهدافها الرئيسية وهي إبطال الرق ، وفتح البلاد للتجارة المشروعة ، وإنزال سفن في بحيرة ألبرت ، وإن تكن أصابت نجاحاً كبيراً في إثارة عداة الأهالي السود لحكومة الخديو ، وإنشاء حلف غير مقدس بين الأهالي وتجار الرقيق^(٦) .

وحين خلف غوردون سلفه بيكر ، أكد عليه الخديو بأن مهمته الأصلية هي توطيد سلطة الحكومة في منطقة البحيرات^(٧) ، خاصة وأن التحركات الاستعمارية بدأت تقترب من هذه المنطقة ؛ ففي الشرق نشط رجال الاستعمار

على حقوق رعايا الخديو . وكان المجتمع المصري بدون رقيق - في رأي البعض - أشبه بالعربة بدون عجلات^(٨) . واعترض على ذلك التعيين أيضاً جعفر مظهر باشا حكمدار عموم السودان ، الذي طالب بأن يتولى ذلك ضباط مصريون ، وحذر من الثقة بالضباط الأجانب في مثل هذه الحملات الهامة في إفريقيا^(٩) .

ولسنا ندري ما إذا كان التفكير في تعيين حكام من الأجانب في السودان بمثابة تأكيد لنوايا الخديو وتسجيل لصدق عزمته في العمل على إبطال تجارة الرقيق ، ليفوت في الوقت نفسه الفرصة على أية دولة أوروبية للتدخل في هذه المناطق بحجة مكافحة الرق بزعم أنها مدفوعة بعوامل إنسانية أو دينية ، أو أن الخديو من ناحية أخرى كان قد دخل - أو بدأ يدخل - في مرحلة الخضوع للضغط الأوروبي ، فكانت نصيحة ولي عهد إنكلترا بمثابة إملاء .

من الجائز أن الأوروبيين بدأوا منذ ذلك الوقت يتطلعون إلى حوض النيل ويملون إرادتهم ، واتخذ ذلك مظهر الاشتراك في ترشيح الحكام ، لأنه من المعتقد أن الخديو لم يكن من قصر النظر بحيث لا يدرك أن الحاكم الأجنبي لا يمكن أن يتجرد من قوميته ، ولا يمكن أيضاً أن يخلص للخديو إخلاصاً لا شائبة فيه ، أو يتخلى عن

(٤) Holt, op. cit., p. 27.
(٥) Lord Elton, General Gordon, London 1957, pp. 170-71.

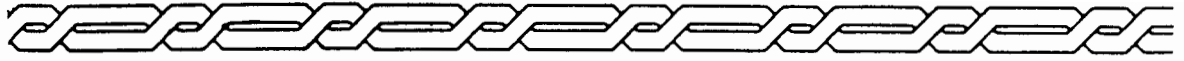
(٦) Shukry, op. cit., p. 174; Holt, op. cit., p. 27.

(٧) انظر تعليمات الخديو إلى غوردون في ١٦ فبراير ١٨٧٤ في شكري : المرجع السابق ص ٢٦٤ - ٢٦٧ .

(٨) Archer , The War in Egypt and the Sudan , London (١) 1886, Vol. I, p. 123.

(٩) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار - بولاق مصر ١٣١٢ هـ ، ج ٢ ، ص ٣٣٥ .

(٣) Theobald, op. cit., p. 16.



الخديو إسماعيل كان يستهدف مواصلة حملته ضد تجار الرقيق ليتقرب من الحكومة الإنجليزية ؛ ويجوز أنه اعتقد أن تعيين غوردون الإنجليزي - بعد أن رفض تجديد عقد بيكر - كفيل بأن يوضح عدم رضا الخديو على شخص بيكر والسياسة الخرقاء التي اتبعها في بحر الجبل .

وقد اشترط غوردون على الخديو أن تطلق يده في اختيار معاونيه من الأوروبيين ، وأن يستقل عن الحكممدارية العامة في الخرطوم .

وصل غوردون إلى الخرطوم في ١٣ مارس ١٨٧٤ ، وقبل أن يغادرها إلى الجنوب أصدر قرار ١٧ مارس المشهور ؛ فكان أول ضربة أصابت صرح ذلك الملك الأفريقي الواسع الذي شيدته مصر في قلب أفريقيا ؛ إذ نص القرار على احتكار تجارة العاج لحساب الحكومة ، وعدم السماح لأي فرد بدخول المديرية الاستوائية دون تذكرة من حكممدارية عموم السودان في الخرطوم ، وهي لا تعتمد إلا إذا كانت تحمل تأشيرة بالتصديق عليها من سلطات غندكرو ؛ ونص القرار أيضاً على تحريم تجنيد أو تنظيم أية جماعات مسلحة أو دخول الأسلحة النارية أو البارود ؛ وهدد بمعاقبة كل من يخالف ذلك بأقصى ما تجيزه القواعد والأحكام العسكرية^(٢) . وما إن وصل إلى غندكرو ، حتى كان أهم ما عني به هو تنفيذ قرار ١٧ مارس ؛ فصادر المراكب

الألمان والانكليز فيما بين زنجبار وبحيرة فيكتوريا ، وفي الغرب نشط ليوبولد الثاني ملك البلجيكي في حوض نهر الكونجو . وقد وضح للخديو فيما بعد أن غوردون لم ينفذ بإخلاص الجزء الخاص بتوطيد أركان الحكومة ، بل وثبت أن بعض رجاله وخاصة آرنست دي يلفون أوهم أمتيسه ملك أوجندة حين هم باعتراف الاسلام ؛ بأن هناك ديانات أخرى وممالك أوروبية قوية ؛ فسبب ذلك بلبلة واضطراباً لدى الملك الطيب ، وانسحب غوردون من أوجندة ، واحتج عليه الخديو ولكنه انتحل لنفسه مختلف المعاذير .

وهكذا بدلاً من أن يعمل غوردون على توطيد نفوذ الخديو في أوجندة ، نجده على العكس من ذلك ، بذل جهده للقضاء على ذلك النفوذ ؛ فلا عجب إن تنازل عن العشرة آلاف جنيه التي كان يتقاضاها سلفه بيكر سنوياً واكتفى بألفين فحسب ! .

وقد صور غوردون شعوره نحو المصريين أصدق تصوير حين كتب إلى شقيقته أوجستا يقول « إنني أكرههم [أي المصريين] وهم لا يستحقون أن أبقى يوماً من أجلهم في هذه البلاد »^(١) .

وفي الواقع كان تعيين غوردون خلفاً لبيكر قد أثار غضب الدوائر الرسمية وغير الرسمية في القاهرة ، فقد كانت ترى في ذلك التعيين لفتة من الخديو بقصد ضمان تأييد إنجلترا في الأزمة المالية المستحكمة في مصر . ومن المعتقد أن

Sabry, L'Empire Egyptienne Sous Ismail, Paris 1933, (٢) pp. 476-77; Shukry, op. cit., p. 191.

Lord Elton, op. cit., p. 216.

(١)

بعد ذلك رئيساً للقسم الطبي ، وأوفد في مهمة رسمية إلى امتيسا ملك أوجندة وكباريجا ملك أونورو Unyoro ، وبعد عودته عام ١٨٧٨ منح رتبة البكوية وعين مديراً للمديرية بناء على توصية غوردون^(٣) . وحين تسلم أمين بك منصبه كانت المديرية الاستوائية تمتد على طول النيل من نقطة خروجه من بحيرة ألبرت حتى لادو على بحر الجبل ؛ فتضم الأجزاء الشمالية من بلاد الأونورو وبلاد الشولي والمادي والباري واللاتوكا والماكرাকা والمورو ؛ كما كانت تمتد من ناحية أخرى على النيل في الجزء الواقع بين بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت المعروف باسم نيل فيكتوريا حتى بحيرة إبراهيم (كيوجا) ، بل وتتوغل جنوباً حتى خط العرض الأول شمالي خط الاستواء أي ما يقرب من خمسين ميلاً شمالي بحيرة فيكتوريا ، ولكن بعد نشوب ثورة محمد أحمد المعروف بالمهدي في السودان ، بات لزاماً على الحاميات المصرية أن تعمل على إخلاء محطات فويرة وغيرها على نيل فيكتوريا لكي تركز قوتها في المنطقة الواقعة بين بحيرة ألبرت ولادو وهي مسافة يبلغ طولها حوالي مائتي ميل ، وتمر بمواقع دوفيليه ولابورة وكيري وبدن والرجاف وغندوكرو ولادو .

والمديرية الاستوائية عبارة عن وادٍ مستطيل خصب للغاية يضم أراضٍ زراعية ومراع ؛ وقد أطلق على منطقة تسمى فاتيكو في بلاد الشولي

المحملة بالعاج والرقيق ، وأقام سلسلة من المحطات العسكرية على طول بحر الجبل ، وفتح بحيرة ألبرت للملاحة .

وفي وسعنا - حسب رأي البعض - أن نسلم بقيام غوردون بمكافحة الإغارات التي يشنها التجار لصيد الرقيق وسرقته ؛ ذلك أن تأمين سلامة الأهالي من صميم عمله كممثل لسلطة الخديو ، إلا أن احتكار العاج لحساب الحكومة على زعم أنه يشجع تجارة الرقيق ، ومصادرة العاج والرقيق معاً وهما كما نعلم يمثلان السلعتين الرئيسيتين للمبادلات التجارية ، فإن قيامه بذلك كله قبل أن يخلق موارد جديدة ، كان بلا شك عملاً لا يتفق مع العدالة أو السياسة^(١) .

وقد ترتب على قرار ١٧ مارس تعطيل التجارة في النيل الأبيض وخراب تجارة العاج ، كما أثار عداوة تجار الخرطوم وهم بمثابة سلاطين السودان الحقيقيين الذين كانوا يستغلون رؤوس أموالهم في تجارة العاج ؛ فأصبح هذا القرار جرثومة للشورة التي نشبت في البلاد كلها فيما بعد ، وازداد السخط على سياسة الخديو بعد أن اضطر عدد كبير من التجارة إلى اعتزال أعمالهم^(٢) .

فلما تخلى غوردون عن منصبه بعد عامين في سنة ١٨٧٦ خلفه الدكتور شنتزر Schnitzer ، وهو طبيب ألماني دخل في خدمة الحكومة المصرية بعد أن اعتنق الإسلام تحت اسم أمين أفندي . ثم أرسل للعمل في المديرية الاستوائية ، وعين

Cocheris, Situation Internationale de l'Egypte et du (٣) Soudan, Paris 1903, p. 343.

Sabry, op. cit., p. 479.

(١)

Holt, op. cit., p. 28.

(٢)



(جنة علماء النبات) paradis des botanistes لما تحويه من وفرة في النباتات والفاكهة والزهور^(١) . وكانت المديرية في الواقع تعد من أغنى أقاليم إفريقيا الوسطى نظراً لجودة منتجاتها ووفرة مياهها وجوها الصحي وجمالها الطبيعي .

وقد بادر أمين بك إلى إعادة تنظيم المديرية ومراقبة تطور المنطقة وتنميتها ؛ فقلّم أطافر العناصر الفاسدة التي تحيط به وضيق سلطاتها إلى أبعد الحدود ؛ وجند الأهالي للعمل في الجيش ؛ وطرّد تجار الرقيق ؛ وعني بالزراعة فأدخل زراعات جديدة ؛ وأسس صناعة النسيج ، وسد العجز الذي كانت تعانيه المديرية في خلال عامين^(٢) .

فلما نشبت ثورة محمد أحمد المعروف بالمهدي ، لم يكن على استعداد لمواجهةها ؛ فضلاً عن أن الأحداث دفعته إلى ارتكاب سلسلة من الأخطاء . وكانت المديرية الاستوائية هي المديرية الوحيدة التي لم تستسلم لمحمد أحمد وأنصاره كما فعلت بقية المديريات السودانية ؛ ولا شك أن ذلك يرجع إلى مقدرته على تنمية موارد الإقليم والدراسة التي كرس لها ماله وحياته ؛ فعلى الرغم من أن لادو كانت تتلقى نصيبها من الغلال أيام غوردون من الخرطوم مباشرة ، إلا أن أمين بك عكف على ملء الشون في الإقليم بكميات ضخمة من الغلال عن طريق تشجيع الأهالي على الزراعة ، وتنظيم عملية

جباية الضرائب ؛ فوزع على المزارعين البذور التي استوردها من مصر وأوروبا ؛ وزرع الليمون والقطن والعنب والخضراوات ؛ فأضفت كلها على حدائق لادو وماكراكا منظراً بديعاً ، وكرس جهوده لدراسة التربة ومزاياها ؛ وشق طرقاً جديدة ، واستخدم فيها الدواب للنقل ، وعني بتربية الماشية .

وقد يبدو من الغريب أن نستعين برأي خصمه ستانلي فيه إذ يقول عنه : « إن المواهب والقدرات التي أبداه أمين في المركز الذي أنشأه ، وتدريب جنوده ، وستراتهم النموذجية ، وحالة البواخر [النيلية] بعد خدمة طويلة ، والترتيبات الممتازة في الخدمات الصحية ، والنظام والدقة في المحطات المختلفة ، وسهولة سداد الضرائب عن طيب خاطر ، كل هذا أظهر نموذجاً استثنائياً لذلك الصنف من الرجال أصحاب المواهب يندر وجوده بين هؤلاء الذين اتخذوا من أفريقيا حقلاً لنشاطهم »^(٣) .

وكان أمين بك معروفاً وقتذاك في الأوساط العلمية في أوروبا كواحد من علماء التاريخ الطبيعي والنبات ؛ فقد قضى ثمانية أعوام لا يمس ستيماً واحداً من مخصصاته وكانت تبلغ خمسة عشر ألف فرنك ، وكان يفضل الإقامة في غابات المناطق الحارة عنها في برلين أو لندن أو القاهرة ؛ وكان رجلاً طيب القلب محسناً رقيقاً شجاعاً ؛ قال عنه مونتني - جفسون Mounteney-Jephson أحد مساعدي ستانلي .

Stanley, Dans les Ténèbres de l'Afrique, Paris 1890., T. (٣) I, p. 412.

Sabry, Le Soudan Egyptien, Le Caire 1947, p. 141. (١)

Cocheris, op. cit., p. 343. (٢)

أي أنه كان يرى إبعاد العناصر العربية الإسلامية عن المديرية ، ويفسح المجال أمام الأوروبيين للاستقرار فيها . ولما أحس بعزلته في المديرية بعد نشوب ثورة محمد أحمد المعروف بالمهدي في الشمال ، اتصل بأحد رؤساء البعثات التبشيرية البريطانية ويدعى الكسندر ماكاي Makay وذلك سنة ١٨٨٦ ، وأبلغه عزمه على وضع المديرية تحت الحماية البريطانية^(٣) .

وسارع ماكاي بعرض هذه الهبة على الحكومة الانجليزية عن طريق صديقه جون كيرك Kirk فنصل بلاده في زنجبار ، ولكن لورد سولسبوري رئيس الوزراء رفض قبول تلك الهبة قائلاً : « طالما كان أمين ألمانيا ، فهذا من شأن الألمان وحدهم »^(٤) .

وبعد استسلام مديرية بحر الغزال لأنصار محمد أحمد المعروف بالمهدي في ٢٨ أبريل ١٨٨٤ ، بات من المتوقع أن يتجهوا صوب المديرية الاستوائية . وبالفعل وبعد حوالي شهر تلقى أمين رسالة من قائد الأنصار ويدعى كرم الله شيخ محمد كركساوي يبلغه فيها استسلام فرانك لبتون Lupton مدير مديرية بحر الغزال ويطلب من أمين وضباطه تسليم المديرية ، والقدم إلى بحر الغزال ؛ وأرفق كرم الله برسائلته عدة خطابات موجهة إلى بعض موظفي المديرية تحمل نفس الطلب وصورة من منشور صادر عن محمد أحمد

« كلما رأته ازداد شوقك للاستماع إليه وبالتالي ازداد تقديرك له » . وكان يتحدث بطلاقة اللغة الألمانية وهي لغته الأصلية والانجليزية والفرنسية والاطالية واليونانية وبعض اللهجات المحلية .

هذه الصفات الجميلة التي أوردناها على لسان ستانلي ومونتني - جفسون تدل على أنهما لم يفهما شخصية أمين بك على حقيقتها ؛ فلم يكن الرجل على خلق يدعو إلى الإعجاب ؛ فقد وصفه أحد مواطنيه الألمان وهو المارشال فون مولتكه بأنه مغامر يعمل كل شيء في سبيل المال^(١) .

Das ist ein Abenteurer , der thut alles für Geld .

وكان أمين غير أمين في حكمه للمديرية الاستوائية ، إذ بينما كان يمثل الحكومة المصرية ؛ كان يتمنى لو أمكنه فصل هذه المديرية عن حكم المصريين وتسليمها إلى الأوروبيين ، فيقول :

« إن من دواعي السخرية أن نحكم بالقضاء على تجارة الرقيق في السودان عن طريق إنشاء إدارة خاصة بذلك في الخرطوم ، ولكن في رأيي أن الطريق الوحيد لتحقيق ذلك هو توحيد مناطق بحر الغزال والمديريات في السودان ، وفصلها فصلاً تاماً عن الأجزاء العربية [الإسلامية] في السودان ، ثم يقع الاختيار بعد ذلك على حاكم أوروبي قدير »^(٢) .

Cocheris, op.cit., o. 349.

Oliver, The Missionary Factor in East Africa, London (٢) 1952, p. 132.

Cocheris, op. cit., p. 345.

Schweinfurth, Atzel Hartlaub and Felkin, Emin Pasha in (٢) Central Africa, London 1888, p. 425.

وكان الوفد يتألف من عثمان الحاج حمد ،
والباشكاتب عثمان أرباب ومأمور الماكراكا
إبراهيم آغا ، وقد غادر الوفد لادو في ٣ يونيو (٤) .

ولم يقتصر الأمر على هذا الخطر الخارجي
الذي تهدد المديرية من جانب الأنصار ، بل
انتشرت حالة من الفوضى والذعر سببها أن إحدى
قبائل الدنكا هاجمت محطة الرومبيك ، وعاثت
فيها فساداً بعد أن قتلت خمسة وسبعين ضابطاً
وجندياً ، ورغم أن إبراهيم آغا مأمور الماكراكا
استطاع أن يخمد الفتنة ويعمل على تهدئة
الأحوال قبل نهاية العام ، إلا أن هذه الحوادث
أدت إلى زيادة الاضطرابات في المديرية التي
نجمت عن التهديد بالغزو من الخارج (٥) .

وفي ١٣ يونيو ١٨٨٤ وصلت إلى لادو أنباء
مزعجة مفادها أن مأمور الماكراكا إبراهيم آغا
(وهو دنقلاوي) الذي ظل على ولائه للحكومة
فترة طويلة أعلن فجأة انضمامه لأنصار محمد
أحمد ، ولكنه لم يستطع أن يجمع حوله إلا
الدناقلة ، وغادر الماكراكا في طريقه إلى بحر
الغزال ، وعاث فساداً وأعمل السلب والنهب في
المحطات الحكومية الواقعة على طول
الطريق (٦) .

وهنا أصدر أمين أوامره إلى النقط البعيدة

وموجه إلى السكان هناك (١) .

وكانت حاميات أمين مبشرة في مراكز عديدة ،
وتفصل بينها مسافات كبيرة ؛ فضلاً عن أن الجنود
كانت تعوزهم المؤن والذخائر والأسلحة إذ لم
تصل إليهم أية باخرة من الخرطوم منذ شهر مارس
١٨٨٣ ؛ أضف إلى ذلك كله أن قائد الأنصار
كرم الله كان له حلفاء طبيعيون بين الدناقلة (٢)
المنتشرين في طول المديرية وعرضها يعملون في
التجارة أو في وظائف الحكومة ، وهم بلا شك
كانوا يؤيدون دعوة محمد أحمد الدنقلاوي (٣) .

ولما تسلم أمين رسالة كرم الله ، عقد على
وجه السرعة اجتماعاً تقرر فيه تشكيل وفد برياسة
أمين للتوجه إلى بحر الغزال وتسليم المديرية .
ولكن مضت عدة أيام ولم يظهر أي أثر لرجال
كرم الله ؛ فاستعاد أمين ورجاله رباطة جأشهم ،
وبدأوا يعيدون النظر في موقفهم . وبعد أن
استعرضوا الأوضاع القائمة في المديرية ، قرروا
مواصلة المقاومة . ولكن أمين رأى أن من
الحكمة التظاهر بالموافقة على التسليم لمجرد
كسب الوقت ريثما يعد العدة للدفاع عن
المديرية . وعزم على إرسال وفد إلى كرم الله
يعرض عليه أن تبقى البلاد بحالتها الراهنة إلى أن
تأتي البواخر من الخرطوم لنقل الضباط والجنود
والموظفين ويتم التسليم لمحمد أحمد شخصياً .

ment respecting the Equatorial Provinces, 1890»,
Cairint 3/14/237; Junker, op. cit., pp. 391-95; Wingate,
Mahdiism and the Egyptian Sudan, London 1899, pp.
142-44.

(٥) Cairint 3/14/236; 3/14/237; Wingate, op. cit., pp. 103-
04.

(٦) Cairint 3/14/236; 3/14/237; Wingate, op. cit., p. 145.

Junker, Travels in Africa (1882-1886), London 1892, (١)
pp. 382-88.

(٢) نسبة إلى مديرية دنقلة في شمال السودان وإليها يرجع أصل
محمد أحمد .

(٣) Holt, op. cit., p. 197.

(٤) «Report of Emin Pasha, 1885», Cairint 3/14/236; «State-

وأخيراً وصل كرم الله على رأس ألفين من الأنصار ؛ فاستطاع أن يقطع المياه والطعام عن الحامية المحاصرة ؛ وأخيراً في نهاية مارس ١٨٨٥ خرجت الحامية في محاولة يائسة لفك الحصار ، وتمكن ٢٦٠ جندياً من اختراق الحصار والوصول إلى بدّن على بحر الجبل ، وفشلت محاولات الأنصار للحاق بهم^(٤) .

وفي حوالي منتصف أبريل تلقى أمين خطاباً ثالثاً من كرم الله يبلغه فيه سقوط الخرطوم في أيدي الأنصار ومصرع الجنرال غوردون حاكم عام السودان . ولم يزحف كرم الله على لادو حيث يوجد أمين ورجاله ، لكنه حاول احتلال بلاد الماكراكا لضمان تموين جنوده بالغلل ، وبلاد الماكراكا منطقة خصبة جداً ، ولكن كرم الله لقي الهزيمة من زعيم البلاد ريحان آغا في أبريل ١٨٨٥ . وفجأة انسحب كرم الله إلى بحر الغزال . وقد اختلفت الآراء حول سبب انسحابه ، فقال البعض إنه انسحب تحت تأثير موقف الأهالي المعادي له^(٥) ؛ في حين يعزو البعض الآخر انسحابه إلى استدعاء محمد أحمد له للعودة إلى أم درمان ليشارك في غزو مصر^(٦) ؛ ويرى نعيم شقير أنه رجع إلى بحر الغزال للقضاء على ثورة الأهالي ضد الأمراء الذين خلفهم هناك^(٧) . والأرجح أنه غادر المديرية الاستوائية

بالتجمع على النيل ؛ وفي نفس الوقت شغل كرم الله بالقضاء على حركة التمرد الكبيرة التي قام بها الجهادية في واو وكوتشوك على والزرائب المنتشرة على طول الطريق بين واو والرومبيك بحيث لم يستطع إعادة الأمن والنظام إلى مديرية بحر الغزال قبل شهر يناير ١٨٨٥ ليعود بنشاطه مرة أخرى إلى المديرية الاستوائية^(١) .

وفي ١٠ أكتوبر ١٨٨٤ وصلت إلى أمين في لادو خطابات أخرى من كرم الله يحذره فيها أن قدوم الأنصار بات مؤكداً^(٢) . ويبدو أن كرم الله كان قد قضى على تمرد الجهادية (وهم العساكر السود في الجيش المصري الذين انضموا إلى جانب أنصار محمد أحمد) بدرجة سمحت له بإرسال ١٦٠٠ جندي بقيادة عبد الله السميت الذي جمع تحت رايته جميع الدناقلة في المديرية ، ولما اقترب من أمادي ، أرسل خطاباً إلى أمين يدعوه للتسليم .

وفي ١١ نوفمبر ، هاجم أنصار محمد أحمد أمادي وكان يعسكر فيها ١١٠٠ جندي ، ورغم أن عبد الله السميت استعان بجماعة الدنكا التي ثارت ضد الحكومة في يوليو من العام السابق ، إلا أن حامية أمادي صمدت في وجه الأنصار ، وانزلت بهم خسائر فادحة ، واضطر الأنصار إلى الاكتفاء بفرض الحصار عليها انتظاراً لوصول الإمداد من بحر الغزال^(٣) .

(٤) Cairint, 3/14/236; Schweinfurth and others, op. cit., pp. 477-80; Junker, op. cit., p. 338.

(٥) Cocheris, op. cit., p. 338.

(٦) «Dehérain, Le Soudan Perdu et Reconquis», Histoire de la Nation Egyptienne, Tome VII, Paris 1940, p. 413.

(٧) شقير : المرجع السابق ج ٣ ، ص ٤٩٥ .

(١) Schweinfurth and others, op. cit., pp. 469-70.

(٢) Junker, op. cit., p. 433.

(٣) Cairint, 3/14/236; Schweinfurth and others, op. cit., pp. 474-75; Wingate, op. cit., pp. 146-47; Junker, op. cit., pp. 439-42.



على عجل بسبب تمرد الجهادية في إقليم بحر الغزال .

وكان جيش المديرية الاستوائية يضم وقتئذ ألفاً وخمسمائة جندي كلهم من السود وبعض الجنود المصريين الذين يعملون في سلاح المدفعية ؛ وخشي أمين أن يتعرض للهجوم من جانب الأنصار ، لذلك غادر لادو في ٢٥ أبريل وانتقل جنوباً إلى وادلاي التي تبعد عنها بحوالي مائتين وخمسين كيلومتراً والتي أصبحت عاصمة للمديرية . وكانت الملاحة في بحر الجبل صعبة فيما بين دوفيليه جنوباً والرجاف شمالاً ، إذ أن الصخور تعترض مجرى النهر عند دوفيليه ولابورة وجوجي وبَدَن ، ومع ذلك فقد كانت هناك الباخرتان « نياسا » و « الخديو » تعملان في تأمين الاتصالات بين هذه المحطات والدفاع عنها^(١) .

ولما استقر أمين في وادلاي ، كان يعتمد على وجود هذه العقبات الطبيعية التي تقف حائلاً بينه وبين أعدائه في الشمال ؛ ثم اتجه إلى تجميع قواته وتضييق مساحة المديرية ، حتى تحولت الى مجرد شريط بسيط من الأراضي يمتد لمسافة ١٨٠ كيلومتراً على طول النهر من لادو إلى بحيرة ألبرت^(٢) ، بعد أن كانت تنتشر غرباً حتى أعالي نهر أوليه Uelé (رافد نهر الكونجو) وشرقاً إلى حدود الحبشة

الغربية . واستطاع أمين ورجاله من مدنيين وعسكريين أن يعيشوا على موارد الإقليم ؛ وكتب يقول : « لم يعد لدينا شيء يذكرنا بالحياة المتحضرة ؛ فليس هناك شمع أو صابون أو سكر أو قهوة »^(٣) .

ومع ذلك ، فقد اطمأن باله من ناحية الأنصار طوال عامين بعد أن توقفوا عن أعمالهم العدوانية ضده إلى أن وصله في ٢٧ فبراير ١٨٨٦ خطاب من نوبار باشا رئيس الحكومة المصرية تاريخه ٢ نوفمبر ١٨٨٥^(٤) يطالبه بإخلاء المديرية والانسحاب إلى مصر بطريق زنجبار على أساس أن الحكومة المصرية كانت قد قررت إخلاء البلاد في مايو ١٨٨٥ ؛ وأبلغه أيضاً أن الحكومة ليس في وسعها أن تمد إليه يد المعونة وأن عليه أن يتخذ الخطوات التي يراها ضرورية لمغادرة البلاد^(٥) .

ولكن الحرب سرعان ما نشبت بين مملكتي أوجندة وأنيورو في الجنوب ، وكان معنى ذلك إقفال الطريق أمام أمين للانسحاب بطريق زنجبار . ولما وضعت الحرب أوزارها دون الوصول إلى نتيجة حاسمة ، بات أمين يأمل في استئناف المفاوضات مع كباريجا ملك أونيورو ، وأوفد لهذا الغرض ضابطاً إيطالياً يدعى كازاتي Casati كان يعمل مساعداً له .

وصل كازاتي إلى بلاط كباريجا في ٢ يونيو

(٤) ورد تاريخ هذا الخطاب ٢٧ مايو ١٨٨٥ في كل من :

Dehérain, op. cit., p. 415, Cocheris, op. cit., p. 347.
Cromer, Modern Egypt, London and New York, 1908, (٥)
vol. II, p. 45; MacMichael, The Anglo-Egyptian Sudan,
London 1934, p. 51.

(١) Sabry, Le Soudan Egyptien, p. 149.

(٢) Cairint, 3/14/236; Junker, op. cit., pp. 515-16.

(٣) Dehérain, op. cit., p. 413.



اتصل بعده موانجا ملك أوجندة ليتحداً معاً في اعتقال القوات التي تنسحب بطريق بلديهما ونزع السلاح منها ؛ وتباطأ كباريجا أيضاً في الاتصال بجماعة نتالي لمنع الحملة من استخدام بلادهم في طريق الانسحاب .

وهنا لجأ كازاتي إلى سلاح التهديد والتخويف ؛ فهدد الملك بالاتصال بالحكومة المصرية وبالسيد سعيد برغش سلطان زنجبار . وهنا فقط سمح الملك بمرور محمد بيرى وقافلته ، وإقامة محطتين مسلحتين بصفة مؤقتة في تنقورو Tunguru ومسوا Msua على شاطئ بحيرة ألبرت لتركيز الجنود بهما بدلاً من تفرقهم في المراكز الشمالية التي تتعرض دائماً لخطر الهجوم عليها من جانب أنصار محمد أحمد ، وإمدادها أيضاً بالغلال .

ولكن الأحوال سرعان ما تغيرت بعد وفاة كاتيجونا المؤيد للمصريين ، وقيل إنه مات مسموماً ، وخلفه عبد الرحمن الزنجباري الذي أصبح المستشار الأول للملك كباريجا ؛ فأعدم زعماء منطقتي تنقورو ومسوا لإظهارهم الخضوع لأمين ، كما بدأ مستشارو الملك في تحريض القبائل على مقاطعة المحطتين المصريتين وعدم إمدادهما بالغلال ، بل وقيل إن كباريجا كان يدبر مؤامرة لدعوة أمين لزيارة أونورو ثم اغتياله . بيد أنه سرعان ما تجددت الأعمال العدوانية بين مملكتي أونورو وأوجندة ؛ فصار الاتصال بأوجندة صعباً مرة أخرى .

وقد اتهم كازاتي مبعوث أمين لدى بلاط

١٨٨٦ وقدم له طلبات أمين وتتلخص في فتح الطريق لتبادل المراسلات ؛ وإقرار سلام عاجل مع أوجندة ؛ والسماح بمرور الضباط والجنود والموظفين إلى مصر ؛ وأن يتحالف الملك مع جماعة نتالي Natali ليتسنى استخدام بلادهم كطريق للانسحاب في حالة فشل المفاوضات لهذا الغرض مع موانجا ملك أوجندة ؛ وأخيراً طلب أن يرسل الملك مندوباً عنه إلى وادلاي . ولما كانت بلاد أونورو لا تزال تذكر حملة سير صمويل بيكر الإرهابية ، فقد بدا عليهم الشك في نيات أمين . وفي الواقع كان في بلاط الملك كباريجا فريقان : أحدهما يرأسه الوزير الطيب المسن كاتيجونا Kategona الذي حاول أن يشرح للملك أهداف البعثة السلمية ؛ والفريق الآخر كان يتزعمه رجل من زنجبار يدعى عبد الرحمن أخذ يدس لتعطيل أعمال البعثة .

ووافق الملك أخيراً على مرور المراسلات ، ولكنه احتفظ لنفسه بحق الاستيلاء على الرسائل الواردة من أوجندة ؛ وسمح أيضاً بمرور القوات المسلحة بشرط أن يتم ذلك على دفعات صغيرة وفي فترات متباعدة .

واستطاع كازاتي أن يتصل سراً بالبعثة التبشيرية الإنجيلية في أوجندة عن طريق بعض التجار من زنجبار ؛ وعلم أن محمد بيرى الذي وعد يونكر أمين بأن يرسل معه كل ما يحتاج إليه من مهمات وسلع ، كان قد غادر أوجندة محملاً بها ، ولكن كباريجا منعه من المرور . بل وأكثر من ذلك علم كازاتي أن كباريجا



كباريجا بأنه كان على اتصال بأوجنده سراً ؛ فاعتقل بتهمة التآمر على خلع ملك أونيورو والاتفاق مع عدوه موانجا ؛ والتودد إلى الناس في مملكة أونيورو بغية إثارتهم ضد ملكهم ، ورفع علم الحكومة المصرية على المملكة . ولكن كازاتي استطاع الفرار واللاحق بأمين الذي ألقى عليه تبعة هذه الحوادث كلها واتهمه بأنه أساء إلى مركز حكومته وبالقضاء على مستقبل المديرية بدخوله في مفاوضات حمقاء مع ملك أونيورو ، وبذلك أضاع الطريق الوحيد لإرسال الخطابات إلى الخارج ، فضلاً عن أنه جلب عليهم عداوة ملك طيب القلب^(١) .

وكان لوصول محمد بيدي بالسلع إلى وادلاي أكبر الأثر في رفع الروح المعنوية للجنود الذين أدركوا أن الحكومة في مصر لا تزال تعنى بأمرهم ، وأنه لا أهمية الآن لخطابات نوبار باشا التي تأمرهم بالانسحاب ، لذلك ما إن ثارت قبائل الشولي بتدبير من كباريجا حتى أنزل بها الجنود الذين يشتعلون حماساً هزائماً منكراً في عدة أماكن^(٢) .

لكن بات من الصعب الانسحاب بطريق الجنوب فضلاً عن أن « العساكر وأكثر الضباط كانوا من السود ، وقد تزوجوا من نساء البلاد واقتنوا من رقيقها ؛ فلما قرأ لهم أمين كتاب نوبار رفضوا الإذعان لأوامر الحكومة ، وأصروا على الانسحاب بطريق الخرطوم إذا كان لا مفر

من ذلك »^(٣) .

وفي ذلك الوقت كان الرحالة الألماني الدكتور يونكر قد وصل إلى زنجبار في ١٤ ديسمبر ١٨٨٦ في طريق عودته إلى أوروبا لنشر أعماله الجغرافية عن أفريقيا الاستوائية ، وكان قد قابل أمين في وادلاي التي غادرها في ٢ يناير ١٨٨٦ في طريقه إلى الساحل ماراً بمركز الإرسالية الإنجيلية في مسالالا Masalala الواقعة على جنوب بحيرة فيكتوريا ، ومنها كتب إلى المستكشف الألماني شقاينفورت خطاباً بتاريخ ١٦ أبريل ١٨٨٦ جاء فيه :

« ألا يمكن عمل شيء من أجل هذه المديرية الاستوائية التعسة ، إني في سبيل نشر مقالات في الصحف تفتح عيون العالم لتأييد أمين بك ، وإذا لم تتحرك أوروبا فسوف يحل بها عار أبدي ، وإني سوف أدافع في أوروبا عن إنقاذ أمين واسترداد هذه المديرية »^(٤) .

وقد نشرت هذه الرسالة في جريدة اجبشيان جازيت التي تصدر في القاهرة بالانجليزية في عددها الصادر في ٦ نوفمبر ١٨٨٦ كما نشرت في عدد ١٧ نوفمبر من نفس السنة في جريدة ألمانية تسمى Kölnische Zeitung التي تصدر في كولونيا بألمانيا . وبعد شهر نشرت جريدة التيمز اللندنية في ٩ ديسمبر مقالاً بقلم أحد أصدقاء أمين وهو من رجال الدين ويدعى

Ibid., vol. II, pp. 28-30.

(٢)

(٣) شقير : نفس المرجع ج ٣ ، ص ٤٩٥ .

Dehérain, op. cit., p. 414.

(٤)

(١) Casati , Ten Years in Equatoria and the Return with Emin Pasha, London and New York, 1891, vol. II, pp. 20-27, 103.

لإنقاذه ، بل بعثة ذات صفة علمية تؤلفها الحكومة البريطانية»^(٢) .

وفي الوقت الذي (تتحمس) فيه الجمعية الجغرافية الاسكتلندية (لإنقاذ) أمين ، نجد أن الرجل نفسه لم يكن متحمساً لمغادرة البلاد ، بل ولم يفكر على الإطلاق في طلب النجدة ؛ فقد تركناه في وادلاي في أوائل عام ١٨٨٨ . وفي ٦ يوليو من نفس السنة يكتب إلى صديقه الدكتور فيلكن بأنه سعيد بإبلاغه أن الحالة في المديرية هادئة تماماً . وفي نفس اليوم كتب إلى المستر ماكاي Mackay وهو من رجال البعثات التبشيرية الانجيلية في أوجندة بأنه ليس هناك ما يحمله على مغادرة هذه المناطق التي قضى فيها عشرة أعوام^(٣) .

وقد أرسلت القنصلية الانجليزية في زنجبار برقيتين في الخامس والسابع والعشرين من سبتمبر ١٨٨٦ إلى سير إقليد بارنج (لورد كرومر فيما بعد) بالقاهرة جاء فيهما أنه يبدو من الخطابات التي بعث بها أمين إلى يونكر وماكاي أن الغالبية العظمى من المصريين الذين بقوا على ولائهم لمصر وللحاكم رغم هجمات انصار محمد أحمد المتكررة وخطر الموت جوعاً ، رفضت مغادرة البلاد .

وكانت هذه فعلاً رغبة الجنود لدرجة أنه في خلال عام ١٨٨٧ ، أحس بعض رجال الكتيبة الأولى - وكان لدى أمين كتيبتان - أن أمين

فيلكن Felkin يقول فيه إن أمين أرسل له خطاباً مؤرخاً في ٧ يوليو يقول فيه :

« في هذا الوقت الذي تتنافس فيه الدول الأوروبية على توطيد نفوذها في ممتلكاتها في أفريقيا ؛ أليس هناك في إنجلترا كلها شخص من الذكاء بحيث يدرك كم من السهل انتزاع مديرية بأكملها ؟ »^(١) .

ويقال إنه بمجرد وصول يونكر إلى زنجبار استقبله القنصل الانجليزي جون كيرك واستخدمه لديه ، ولعل ذلك يفسر البرقية التي أرسلها يونكر إلى أوروبا يلح فيها بضرورة إرسال بعثة على عجل (لإنقاذ) أمين .

ولم تجد هذه النداءات صدى في ألمانيا حيث لم يكن الاهتمام بالمسائل الاستعمارية قد تبلور بعد ؛ إنما اجتمعت الجمعية الجغرافية الاسكتلندية في أدنبرة ، واتخذت في ٢٣ نوفمبر ١٨٨٦ القرار التالي :

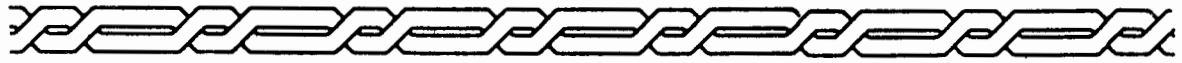
« بالنظر إلى الخدمات العديدة التي أداها أمين باشا خلال إقامته اثني عشر عاماً في أواسط أفريقيا لا من أجل الجغرافيا فحسب ، بل من أجل العلم خاصة ؛ وبالنظر إلى الخدمات الشخصية والمعونة التي قدمها إلى جميع رجال الكشف دون استثناء ؛ فإن الجمعية الجغرافية تقدر أن أمين باشا يستحق العون من الحكومة البريطانية ، ولا تطالب الجمعية الجغرافية بإرسال حملة عسكرية

Dehéraïn, op. cit., p. 414.
Stanley, op. cit., t. I, p. 25.

(٢)
(٣)

Sabry, Le Soudan Egyptien, p. 151.

(١)



يوشك على التخلي عن المديرية ؛ فقبضوا عليه واستبقوه أسيراً ، ورفضوا أن يتركوه يرحل^(١) .

ورسمت الخطط (لإنقاذ) أمين ؛ والذين أخذوا على عاتقهم تحقيق ذلك وإبعاد أمين عن المديرية الاستوائية رجال ثلاثة هم : ليوبولد الثاني ملك البلجيك وعاهل دولة الكونجو الحرة ، ووليم ماكينون رئيس جمعية شرق أفريقيا البريطانية ، والمغامر هنري مورتون ستانلي .

أما ليوبولد ، فكان يأمل في ضم الجزء الجنوبي من السودان الى دولة الكونجو الحرة على يد الجنرال غوردون لما تولى الأخير منصب حاكم دار عموم السودان ، إلا أن سقوط الخرطوم ومصرع غوردون فيها في يناير ١٨٨٥ قضى على هذا المشروع ، بيد أن وجود أمين في المديرية الاستوائية سرعان ما فتح باب الأمل ثانية^(٢) .

وأما سير وليم ماكينون فكان يرأس جمعية شرق أفريقيا البريطانية British East Africa Association ، وقد أسس خدمات بريدية إلى زنجبار عام ١٨٧٢ ، وكان صديقاً حميماً لجون كيرك قنصل إنجلترا في زنجبار ، وكان أيضاً صديقاً للسلطان سعيد برغش نفسه . وكان سلطان زنجبار قد عرض على ماكينون عام ١٨٧٧ عقد إيجار لمدة سبعين سنة للجمارك

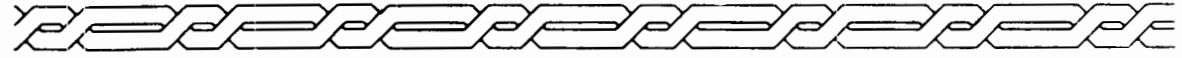
وإدارة كل أملاك زنجبار بما فيها حق السيادة مع تحفظات تشمل جزيرتي زنجبار وبمبا ، ولكن ماكينون رفض هذا العرض قنذاك لأنه كان يشعر أنه لن ينال تأييد وزارة الخارجية الانجليزية^(٣) .

وكانت جمعية شرق أفريقيا التي يرأسها ماكينون قد تأسست عام ١٨٨٥ وكانت تستهدف استثمار المنطقة الواقعة بين ساحل المحيط الهندي والبحيرات الاستوائية والنيل ، ومد خط حديدي من ممباسا إلى البحيرات^(٤) . والهدف النهائي بطبيعة الحال إنشاء سيطرة تجارية إنجليزية في أول الأمر ، ثم تتبعها السيطرة السياسية في النهاية على المناطق الواقعة بين الساحل والنيل ثم توحيد الممتلكات الانجليزية في جنوب أفريقيا مع السودان .

وأما هنري مورتون ستانلي ؛ فهو رجل وزارة الخارجية الانجليزية بلا منازع ؛ فهي التي نظمت حملة ستانلي بموافقة لورد إيدسليه Iddesleigh وزير الخارجية وسيرافلين بارنج المعتمد البريطاني في مصر وجون كيرك القنصل الانجليزي في زنجبار وسير وليم ماكينون الذي كان يستتر وراء لقب (رئيس لجنة الانقاذ) . وكان ستانلي ينكر أنه عميل إنجليزي ، فصرح في القاهرة في ٢٨ يناير ١٨٨٧ لمراسل صحيفة انجليزية بما يلي :

McDermott, British East Africa or IBEA, London (٣) 1893, 1st edition, p. 3.
Ibid., p. 5; Dehérain, op. cit., p. 414. (٤)

Cocheris, op. cit., p. 348. (١)
Langer, The Diplomacy of Imperialism, New York (٢) 1935, vol. II, p. 113.



« من دواعي السخرية أن يقال إن الغرض من رحيلي هو العمل لحساب إنجلترا ونزع مصر من مديرياتها ؛ فإننا لسنا مبعوثين لانجلترا »^(١) . وكان ستانلي الذي سبق له أن كشف حوض نهر الكونجو ، مغامراً قاسياً لا يعرف معنى للرحمة أو الشفقة ، ولا يعبأ كثيراً بتطبيق حقوق الانسان في أواسط أفريقيا بين الجماعات البدائية ، وكان ذا نشاط خارق وقوة احتمال عجيبة ، وكان من رأيه أن الغاية تبرر الوسطة ، وهو من ذلك الصنف من الرجال الذين يقدرّون دائماً النجاح لمهامهم^(٢) .

ويبدو أن لورد إيدسليه قد أخذ في الاعتبار احتمال اعتراض أمين على (إنقاذه) ، لهذا عني بجمع معظم الخطابات الخاصة التي تبادلها أمين مع أصدقائه فيلكن وكيرك وماكاكي ، ومن بينها خطاب كتبه أمين إلى كيرك دون أن يدرك - بلا شك - الأهمية القصوى لعباراته ، وكيف يمكن أن تفيدها منها إنجلترا حين قال إنه يفكر في تسليم المديرية إلى إنجلترا أو أية دولة أوروبية بشرط أن تعدّه بالمحافظة عليها . وتمسك إيدسليه بهذه الفقرة وعهد بها إلى ستانلي الذي وضعها بدوره أمام عيني أمين بناء على تعليمات وزير الخارجية الانجليزية^(٣) . وثار أمين على محاولة الإساءة إليه في القاهرة عن طريق استغلال عبارة صدرت عنه عفواً ، وقد لا تعبر صراحة عن

نواياه الحقيقية ؛ فصاح في وجه ستانلي : هذا كان خطاباً خاصاً ، لم يكن من الواجب نشره^(٤) .

ورغم كل ما كتب حول هذا الموضوع ؛ فإنه من الصعوبة بمكان توضيح أو كشف النقاب عن الدوافع المختلفة التي تكمن وراء مهمة ستانلي^(٥) .

يرى البعض أن حملة ستانلي تخفي تحت ستار (إنقاذ) أمين هدفاً سياسياً هو الخطوة الأولى نحو تأسيس إمبراطورية إنجليزية في أفريقيا^(٦) .

في حين يرى البعض الآخر أنه كان للحملة أهداف إنسانية وجغرافية وسياسية وتجارية : أما من الناحية الانسانية ؛ فإن مصرع الجنرال غوردون في الخرطوم عام ١٨٨٥ كان يثقل الضمير الانجليزي ؛ وإنقاذ المدير الذي انعزل في إحدى المديريات السودانية وظل محتفظاً باستقلاله كان لا بد وأن يكفر عن الغلطة الكبرى التي اقترفتها البلاد عام ١٨٨٥ . ومن الناحية الجغرافية ، فإن الكشف التي سوف تتحقق على يد الحملة ، ترضي الرأي العام الذي بدأ يهتم بالقارة الافريقية اهتماماً عاطفياً . ومن الناحية السياسية ، فإنه أما وقد أبلغ نوبار باشا أمين في خطاب ٢٧ مايو ١٨٨٥ بأن الحكومة الخديوية « مصممة على التخلي

Ibid., Cocheris, op. cit., p. 350

Langer, op. cit., vol. II, p. 113.

Cocheris, op. cit., p. 351.

(٤)

(٥)

(٦)

Cocheris, op. cit., p. 350.

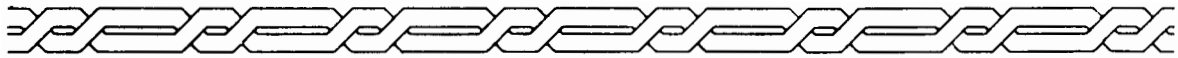
Ibid, p. 345.

Stanley, op. cit., t. I, p. 385.

(١)

(٢)

(٣)



وبذلك لم يكن نداء أمين إلى الشعب الانجليزي في نهاية عام ١٨٨٥ هو الدافع لذلك العمل (الكريم) الذي كان في ظاهره يهدف إلى (إنقاذ) أحد مساعدي غوردون ، بل كانت المسألة أعمق من ذلك بكثير . ولذلك اتخذت الإجراءات السريعة للتنفيذ وانهالت التبرعات بسخاء من فاعلي الخير^(٤) . إذ أنه في مثل هذه الظروف الدقيقة ، تفضل الحكومة الانجليزية دائماً أن تعمل من وراء الستار ؛ لهذا فإن لجنة الإنقاذ ناشدت أهل الكرم والمروءة للتبرع (لإنقاذ) ذلك البطل المنعزل في داخل أفريقيا ، ولم تسنح فرصة أكثر مناسبة من هذه أمام إنجلترا لإظهار كرمها ونواياها الطيبة^(٥) ! .

وعقد ستانلي وماكينون عدة اجتماعات مع الملك ليوبولد الثاني في بروكسل « للمذاكرة مع جناب ملكها فيما يتعلق بالإرسالية العلمية التي ستتوجه إلى خط الاستواء لإنقاذ أمين باشا »^(٦) .

وتوجه ستانلي أولاً إلى مصر لا بوصفه رئيساً للجنة (الإنقاذ) فحسب ، بل وعميلاً لملك البلجيك أيضاً ؛ فقد سبق له العمل مع ليوبولد الذي وجد فيه أداة طيعة ؛ فكلفه بالكشف عن مناطق أخرى في أراضي الكونجو^(٧) .

عن تلك المناطق « ؛ فإن شركة شرق أفريقيا الأمبراطورية البريطانية التي يرمز لها Imperial British East Africa (IBEA) يمكنها استغلال هذه الفرصة لامتداد مجال نشاطها إلى الشمال من أوجندة . أما العامل التجاري ، فإنه كان معروفاً أن أمين يملك شحنة كبيرة من العاج تقدر بحوالي ٧٥ طن ، يمكن أن تغطي نفقات الحملة^(١) .

هذا بينما يؤكد احد الأعضاء الذين اشتركوا في حملة ستانلي أن (إنقاذ) أمين لم يكن في نظر ستانلي سوى عملاً ثانوياً ، لأن الرأسماليين كانوا يفكرون فقط في العاج الذي افترضوا أن أمين جمعه^(٢) .

ومما لا شك فيه أن طلب نوبار باشا إخلاء المديرية لم يكن يمثل إرادة وطنية مصرية بقدر ما كان يعكس آراء أسياده في وزارة الخارجية البريطانية ورأي سير أفلين بارنج^(٣) ؛ فليس غريباً بعد هذا كله ، أن يهتم ليوبولد وصديقه ماكينون بالمديرية الاستوائية ، وكانت الفكرة الأساسية عندهما هي أنه إذا أمكن إمداد أمين بالموثوق اللازمة ؛ فإنه يمكن اعتبار المديرية بمثابة محطة نهائية Terminus للطرق القادمة من دولة الكونجو الحرة من ناحية ومن شرقي أفريقيا البريطانية من ناحية أخرى .

(٤) Darcy, La Conquete de l'Afrique, Paris 1900, p. 250.

(٦) جريدة القاهرة الحرة ، العدد الصادر في ٨ يناير ١٨٨٧ .

(٧) Perham, Lugard, Years of Adventure, London, 1956, p. 173.

Dehérain, op. cit., pp. 414-15.

Cocheris, op. cit., p. 353.

Langer, op. cit., vol. II, p. 114.

Casati, op. cit., vol. II, p. 154.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

المديرية ، وبذلك تقع البلاد فريسة في أيدي الأنصار ، وتعم بها الفوضى ، وتصبح الفرص متكافئة أمام الإنجليز والألمان لاقتسام المديرية^(٢) .

والأمر الذي لا شك فيه أن ستانلي لم يكن سوى اليد المنفذة ، أما العقل المفكر فكانت وزارة الخارجية الإنجليزية التي لم تعد تطبق السماح لأمين بالبقاء في المديرية ، لأن ذلك البقاء يحمل في طياته خطراً مزدوجاً : فلو أن أمين أصر على الاحتفاظ بحقوق الخديو في المديرية ، سد عليها بذلك طريق النفوذ من جهة الجنوب ، وربما من ناحية أخرى سلم المديرية إلى ألمانيا بعد أن يشعر بعزلته ؛ خاصة وأن حملات الاستعماري الألماني الكبير دكتور كارل بيترس Peters في تلك المناطق وسياسته في زنجبار لم تكن تخفى على أحد^(٣) .

وقد أسهم ماكينون وعشيرته - كما كان يحلو لستانلي دائماً أن يسميهم - بمبلغ ١١,٥٠٠ جنيه استرلينياً ، ودفعت الحكومة المصرية عشرة آلاف جنيه بالإضافة إلى ٧٥ طن من العاج كانت طرف أمين في وادلاي ويقدر ثمنها بستين ألف جنيه ، وكان من الممكن أن تغطي النفقات^(٤) . واتفق أيضاً على أن تمد الحكومة المصرية ستانلي بفرقة من الجنود السودانيين ، وكلف جون كيرك بتجنيد بعض الجنود والحمالين من زنجبار .

ويعلل المؤرخون الفرنسيون لهفة الانجليز على التدخل السريع في المديرية الاستوائية ، بأنه رغم أن أمين كان يحكم المديرية باسم الخديو ، إلا أنه مما لا شك فيه كان يتمتع باستقلال تام . وكان معنى ذلك أن المديرية ومعها حوض بحيرة فيكتوريا ومفتاح مصر باتت في أيدي ألمانية تعتمد على قوات كبيرة لم تشهد هذه المناطق من قبل ؛ فلم يكن ذلك في مصلحة الانجليز ، وبات ذلك الطيب الألماني شغلهم الشاغل ، وقيل إنهم كانوا يفضلون مائة مرة لو سقطت المديرية في أيدي أنصار محمد أحمد بدلاً من أن تكون سبباً في توسيع رقعة النفوذ الألماني في هذا الجزء من أفريقيا^(١) .

ولم تكن مخاوف الإنجليز في الحقيقة على غير أساس ؛ فالشعور العام في ألمانيا كان متحمساً للغاية بعد أن اكتسب ذلك المغامر (أمين) إعجاب الناس ، وأصبحوا يرون أن الشرف الألماني والعلم الألماني قد ارتبطا بالنيل ؛ فإن مصر قد فقدت المديرية الاستوائية إلى الأبد ، وأصبحت من حق أمين الذي دافع عنها ، واحتفظ بها للحضارة والمدنية ، وكونه ألمانيا يجعل من السهل الاتفاق معه لرفع العلم الألماني فوق أعالي النيل . وهنا لم يعد أمام إنجلترا سوى التدخل السريع ، وكان ينبغي أولاً وقبل كل شيء إكراه أمين على التخلي عن

Cochéris, op. cit., p. 346.

(٣)

Déville, Partage de l'Afrique, Paris 1898, p. 103.

(١)

(٤) العدد الصادر في ٢٩ يناير ١٨٨٧ من جريدة القاهرة الحرة .

Darcy, op. cit., pp. 248-49.

(٢)

أن الشفقة السياسية متقدمة اليوم على الرحمة الإنسانية»^(١) .

وقد قيل إن ستانلي لم يقبل الذهاب إلى المديرية بطريق زنجبار لعدة أسباب منها توقع هرب الحمالين أثناء الطريق ، وتعريض البعثات التبشيرية المسيحية للخطر ، فضلاً عن أن قلة المؤن والمياه تجعل هذا الطريق الذي يخترق إقليم قبائل المساي الرعوية شديدة المراس غير مأمون العواقب لقافلة كثيرة العدد ، هذا بالإضافة إلى أنه كان كفيلاً بإثارة تدمير ألمانيا واحتجاج فرنسا ، بعد أن ألحح السفير الفرنسي في لندن إلى لورد إيدسليه عن النتائج الخطيرة والكوارث المروعة التي يمكن أن تحل بالبعثات التبشيرية الكاثوليكية في أوجنده إذا مرت بها الحملة^(٢) .

والألمان من جانبهم بطبيعة الحال لم يكونوا يميلون إلى أن يتم (إنقاذ) أمين على يد ستانلي ، وإلا ضاعت من أيديهم المديرية الاستوائية ، وإذا كان لا مناص من هذا (الإنقاذ) ؛ فليتم على أيدي أحد رجال الكشف الجغرافي الألمان ليتسلم منه المديرية . وبالفعل لن يقف الألمان مكتوفي الأيدي ، بل سوف يقدمون على اتخاذ خطوات عملية لتنفيذ ذلك على يد كارل بيترس . ولهذا كان من الطبيعي أن يعترض الألمان على خروج ستانلي من طريق زنجبار^(٣) .

وغادر ستانلي لندن في أواخر يناير ١٨٨٧ ، بعد أن عرض على ولي عهد بريطانيا - أمير ويلز - أهداف البعثة ، ولما وصل إلى القاهرة ، كان سير أفلين بارنج في انتظاره في محطة سكة حديد العاصمة ، واجتمع ببعض القادة العسكريين من الإنجليز ، وأخيراً قابل الخديو محمد توفيق .

ويبدو أنه وقع خلاف بين الحكومة الخديوية والسلطات الانجليزية حول المكان الذي يبدأ منه ستانلي (لإنقاذ) أمين . كانت الحكومة تفضل طريق زنجبار ، في حين كان ستانلي يريد الوصول إلى أمين عن طريق حوض الكونجو . وكتبت إحدى صحف القاهرة تستعرض هذا الخلاف فتقول :

« والمرور بالكونجو ربما يقصد منه افتتاح تلك الجهات ، أعني افتتاح الدروب التجارية من الكونجو إلى خط الاستواء ، وهذا يخالف مراد الحكومة في تعيينها عشرة آلاف جنيه لمساعدة مستر ستانلي ؛ فإذا أصر هذا السائح على اختيار درب الكونجو وتفضيلها على زنجبار ، فربما أن الحكومة السنية لا تعطيه الـ ١٢٠ ألفاً التي في عزمها أن ترسلهم معه . . . والحاصل أن مسألة إنجاد أمين باشا . . . من شأنها أن تسبب في افتتاح الدروب التجارية بين أوروبا وخط الاستواء ، وهذا هو المراد من إنجاد أمين باشا إذ الظاهر

الانجليز والألمان ، منشورة بمجلة جامعة الملك عبد العزيز

العدد الثاني ، جمادى الثانية ١٣٩٨ ص ٧١ - ٨٢ .

أنظر أيضاً : Perham, op. cit., p. 173.

(١) العدد الصادر في ٢٩ يناير ١٨٨٧ من جريدة القاهرة الحرة .

(٢) Salisbury to Malet, F.O., 2.7.1887, quoted by McDermott, op. cit., pp. 11-12.

(٣) راجع دراسة للمؤلف بعنوان : سلطنة زنجبار الإسلامية بين



وكان ستانلي يفضل طريق حوض الكونجو لأنه كان على ثقة من أنه سوف يحصل على معونة ملك البلجيك بعد أن رسمت الخطط في بروكسل لذلك ، فضلاً عن أن ستانلي كان يعرف هذه المنطقة التي كشفها من قبل معرفة وثيقة ، هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن هناك ما يخشاه من فرار الحمالين عائدين إلى بلادهم ، أو الاشتباك مع القبائل المعادية هناك ، كذلك لم تكن توجد هناك إرساليات تبشيرية يخشى أن تتعرض للخطر إذا مرت الحملة بها .

وبشيء من الضغط أمكن (إقناع) الحكومة الخديوية بالتنازل عن مطلبها أن يسافر ستانلي بطريق زنجبار بل وباتت « تستصوب سفره عن طريق الكونجو »^(١) ! .

وحمل ستانلي معه فرماناً من الخديو موجهاً إلى أمين باشا يطلب منه العودة إلى مصر أو يكون له مطلق الحرية في البقاء على مسؤوليته الشخصية ، والفرمان بتاريخ ٨ جمادى الأولى ١٣٠٤ هـ (أول فبراير ١٨٨٧ م) وهذا نصه :

« حررنا إليك قبلاً في ٢٩ نوفمبر ١٨٨٦ مرة ٣١ مع ما حرره عطوفة نوبار باشا رئيس مجلس نظارنا ؛ فشكرنا على الهمة والبسالة اللتين أظهرتهما أنت والضباط والعساكر الذين معك في الدفاع عن بلاد خط الاستواء المصرية . لذلك قد رقيناك إلى رتبة لواء باشا ، وصدقنا جميع الترقية التي توصي بها للضباط الذين تحت

إدارتك . ولما كان غرضنا الأعظم انقاذك أنت والضباط والعساكر الذين معك من المركز الحرج الذي صرتم إليه ، وقد ألفت الآن حملة بقيادة السائح الخبير الطائر الصيت المستر ستانلي لانقاذكم من ذلك الحرج والمجيء بكم إلى مصر في الطريق التي تختارها ، وقد اصدرنا أمرنا الحالي وبعثنا به معه لاعلانكم بما كان . وعند وصوله أكلفكم ببلاغ الضباط والعساكر أحسن رغائي ، واعلموا أنكم احرار في المجيء إلى مصر أو البقاء حيث انتم مع الضباط والعساكر ، ولكن اعلّموا أن من أحب البقاء هناك من الضباط والعساكر ؛ فهذا إنما يفعل ذلك على مسؤوليته فلا ينتظر أية مساعدة من الحكومة . إفهم ذلك جيداً وأفهمه للضباط والعساكر ليكونوا على بصيرة مما يفعلون »^(٢) .

وهذا الفرمان على جانب كبير من الأهمية ، لأنه يفسر لماذا تشبث أمين باشا بموقفه ورفض أن يغادر المديرية ، ومما يثير الدهشة أن سير أقلين بارنج الذي كان يقبض على زمام الأمور في مصر وقتئذ لم يفرض على الخديو تغيير بعض فقرات هذا الفرمان ، ويبدو أن السلطات الانجليزية كانت تعول على نشاط ستانلي ومهارته أكثر من اعتمادها على أوامر الخديو^(٣) وينتقد ستانلي الفرمان فيقول « إن الخديو أصدر أمره العالي إلى أمين بقبول مهمة انقاذي له ، وفي نفس الوقت يقول له إفعل ما يحلو لك »^(٤) .

Cocheris, op. cit., p. 353.

(٣)

(١) العدد الصادر في أول فبراير ١٨٨٧ من جريدة القاهرة الحرة .

Stanley, op. cit., t. I, p. 55.

(٤)

(٢) شقير : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٤٩٦ .



بعث النفور في نفوس الأهالي فكانوا يهجرون الأسواق لتجنب التعامل معهم ، حتى بدأ ستانلي يشعر بوطأة نقص المؤن . واضطر في النهاية إلى الانفصال عن القوة الرئيسية للحملة ، والاسراع في جماعة صغيرة مباشرة صوب بحيرة ألبرت (لينقذ) أمين باشا في الوقت المناسب ، خاصة وأن الرحالة يونكر كان قد أذاع أن أمين لا يملك ما يدافع به عن نفسه بعد شهر ديسمبر^(٢) .

ولكن الحقيقة غير ذلك ؛ فإن ستانلي يعتبر المسؤول الأول عن تمزيق حملته ؛ فبدلاً من أن تتقدمه فصيلة صغيرة تكشف له الطريق إلى بحيرة ألبرت ، ويبقى هو مع القوة الرئيسية ، تناسى تلك المسؤولية الملقاة على عاتقه شخصياً ، ولكي ينسب النجاح إلى شخصه ، قدم بنفسه ليضع يده على العاج المخزن في المديرية بعد أن أشيع أن قيمته تبلغ مليوناً من الجنيهات الاسترلينية ، والذي تم الاتفاق مع الحكومة المصرية على استخدامه في سداد نفقات الحملة .

اخترق ستانلي الغابة العظمى حيث تعرض لصنوف العذاب والأهوال من الجوع والأمراض ، وفرار رجاله ، وعداوة الأهالي ، وأخيراً وبعد ١٦٥ يوماً من مغادرته يامبويا وصل إلى بحيرة ألبرت في ١٣ ديسمبر ١٨٨٧ ، وفي ذلك يقول : « لقد كنا نأمل أن نجد الباشا ، إذ قدرنا أن مدير المديرية الذي تحت تصرفه عدد من البواخر والقوارب لا بد وأن يكون معروفاً لدى الجميع في

وصل ستانلي إلى زنجبار لجمع الحمالين ، واتصل أيضاً بسلطان زنجبار ؛ وفي ٢٣ فبراير ١٨٨٧ كتب إلى أمين من زنجبار خطاباً حملة بعض الرسل عن طريق مملكتي أوجنده وأونيورو ، شرح له فيه الهدف من رحلته ، وطلب منه أن يترك له في نقطة كفاللي Kavalli عند أقصى الطرف الجنوبي لبحيرة ألبرت مذكرة يبين له فيها المكان الذي يمكن أن يتقابلا فيه معاً . وفي اليوم التالي غادر زنجبار ، وأبحر حول رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا حتى وصل إلى مصب نهر الكونجو على الساحل الغربي للقارة في ١٨ مارس ، ثم صعد في النهر وتعداه إلى رافده أرويمي Aruwimi وفي إبريل وصل إلى ليوبولد فيل (كنشاسا الحالية عاصمة زائير) ، وفي ٢٤ مايو سار إلى يامبويا وايوتو . ونجح ستانلي بعد ذلك في استخدام أحد كبار زعماء المسلمين في أعالي الكونجو ويدعى تيبو- تيب Tippo-Tib للعمل لحساب ليوبولد ؛ فعقد معه معاهدة عين بمقتضاها الزعيم المسلم حاكماً على ستانلي فولز Stanley Falls ، في مقابل أن يمد ستانلي بالحمالين اللازمين لنقل العاج الموجود لدى أمين باشا^(١) .

وكان ستانلي يأمل في اتمام كشف حوض نهر الكونجو ، ولم يكن الأسطول النهري لدولة الكونجو الحرة في حالة جيدة تسمح له بالعمل ، فاضطر إلى الاستعانة ببخرة صغيرة خاصة بإحدى الارساليات التبشيرية الانجليزية . وبدأت متاعبه تزداد يوماً بعد يوم ؛ فإن سلوك أعضاء الحملة

Casati, op. cit., vol. II, p. 156.

(٢)

Stanley, op. cit., t.I, pp. 60-63, Cocheris, op. cit., p. 353. (١)



بحيرة صغيرة كبهيرة ألبرت يمكن قطعها في يومين من أقصاها شمالاً إلى أقصاها جنوباً ، ويبدو أنه لم يكن يستطيع أو بالأحرى لم يكن يود مغادرة وادلاي .

وكانت وادلاي على مسيرة ٢٥ يوماً أو أربعة أيام بالطريق المائي ، ولم يكن مع ستانلي أية قوارب ، فضلاً عن أنه كان يقيم في وسط معاد ، والذخيرة معه كادت أن تنفذ ، والبلاد عديمة الموارد ، أضف إلى ذلك كله أن القافلة كانت قد فقدت عدداً كبيراً من الحمالين في الطريق . واضطر أن يعود أدراجه مرة ثانية غرباً ليقطع مسافة ٢٣٠ كيلو متراً من بحيرة ألبرت ويلم شتات الزنجباريين المبعثرين على طول خط السير . وعاد إلى بحيرة ألبرت من جديد بعد أن اطمأن على قوته الرئيسية . وفي ١٤ إبريل ١٨٨٨ وصل البحيرة وعلم بظهور إحدى الباخرتين فيها ؛ فاتجه إلى قرية كفالتي حيث سلمه زعيمها رسالة من أمين باشا جاء فيها أنه علم بوجود رجال من البيض جنوب بحيرة ألبرت ، وأنه قدم بنفسه للتحقيق في المسألة ، ولكنه باء بالفشل ، وطلب من ستانلي أن يبقى في مكانه وأن يبلغه برغبته^(١) .

ولاحظ ستانلي أن أمين باشا لم يبد أي حماس للاجتماع به ؛ فعهد إلى مساعدته موننتي - جفسون بأن يحمل إليه رسالة أبلغه فيها أنه موفد على رأس حملة لمساعدته ، وأنه في انتظار ملاقاته ، وأشار إلى حاجته إلى الحبوب

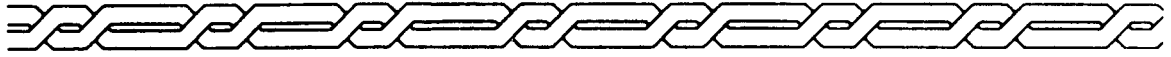
واللحوم ، وأن في حوزته عدداً من الرسائل سوف يحتفظ بها ليسلمها له يدأ بيد . أي أن ستانلي كان في حاجة إلى الانقاذ أكثر من حاجة الباشا نفسه ؛ وأنه لمما يدعو إلى السخرية أنه تم انقاذ حملة الانقاذ بعد أن زودها أمين باشا بما تحتاج إليه من حبوب وملح وعسل وطباق وأقمشة وأحذية .

وفي ٢٩ إبريل ١٨٨٨ وصلت الباخرة (الخديو) إلى نسابي Nasabe ونزل منها أمين باشا ودخل معسكر ستانلي برفقة موننتي - جفسون مساعد ستانلي الذي عاد معه والضابط الايطالي كازاتي وقيتاحسان (الصيدلي بالمديرية وهو يهودي) وضابط برتبة ملازم وأربعة جنود . وبدأت المحادثات في اليوم التالي واستمرت حتى منتصف شهر مايو .

في مساء ٣٠ إبريل قدم ستانلي لأمين باشا أوامر الخديو ، وأدرك على الفور أن مهمته ليست بمثل هذه السهولة التي تصورها ؛ فقد بدا أن الباشا - رغم الصعوبات التي تواجهه - مصر على الاحتفاظ بالمديرية ، ويرى أن الخديو لم يحتم عليه الرحيل ، بل ترك له مطلق الحرية في التصرف . فأشار ستانلي إلى خطورة موقف أمين واستحالة الثبات أمام أنصار محمد أحمد ، وحثه على مغادرة البلاد . وهنا اشترط أمين عرض الأمر على الضباط والجنود ؛ فإذا وافقوا على الرحيل نزل على رغبتهم ، وإلا فإنه يبقى معهم في مديريته .

Cocheris, op. cit., p. 355.

(١)



ويتم بعد ذلك توحيد المديريتين ، ويواصل حكمهما باسم الشركة البريطانية ولحسابها^(١) .

وأخذ ستانلي يغري أمين باشا بترك خدمة الحكومة المصرية التي زعم أنها خربت البلاد ، واحتكرت العاج ، وشجعت تجارة الرقيق ، وعقد له مقارنة بين الادارة المصرية وادارة دولة الكونجو الحرة .

غير أن اقتراح ستانلي لم يرق في عين الباشا ، إذ قال إنه خدم الحكومة المصرية ثلاثين عاماً ، ولن يستطيع استبدالها بآخرين لم يره من قبل . ولم يلح عليه ستانلي كثيراً لقبول إقتراحه العمل في خدمة ليوبولد ، ويبدو أن ستانلي لم يستطع التخلي عن مشاعره بأنه يعمل في خدمة ماكينون وعصبته أكثر مما يعمل في خدمة الملك ليوبولد .

ويصر الضابط الإيطالي كازاتي الذي عاصر الأحداث على أن أمين باشا تجاهل حقوق الحكومة المصرية وارتباطه بها ، والوضع السياسي للمديرية ، وأعلن موافقته على الإقامة على شواطئ بحيرة فيكتوريا ، وأنه عقد هذا الاتفاق بصفة سرية لأنه كان كفيلاً بإثارة التذمر والفوضى بين الأهالي^(٢) .

وقيل أن فيلكن صديق أمين باشا هو الذي استطاع أن يضم الباشا إلى صف الشركة البريطانية ، لأنه واصل الكتابة إليه يطلب منه البقاء في المديرية الاستوائية كممثل للجماعة البريطانية ، بل وصل الأمر أنه سمح لنفسه بأن

وعكف أمين على فحص ما أتى به ستانلي ، ولم يكن يزيد على ثلاثين صندوقاً من البنادق ، فأصيب بخيبة أمل شديدة ، إذ أن هذه البنادق لا يمكن أن تغير شيئاً من الأوضاع في المديرية ؛ فالموظفون والجنود لم يتسلموا مرتباتهم منذ خمسة أعوام رغم أنهم قاوموا الأنصار مقاومة جدية ، ولم تظهر بينهم حالات للفرار من الخدمة إلا في النادر .

ويبدو أن ستانلي أدرك عبث محاولاته مع أمين باشا ؛ فقرر أن يلعب معه لعبته الكبرى ، فتقدم إليه بثلاثة اقتراحات :

أولاً : إخلاء المديرية والعودة إلى القاهرة بناء على نصيحة الخديو . أو

ثانياً : أن يحكم المديرية باسم ملك البلجيك في مقابل ٣٠٠ ألف فرنك ومرتب سنوي قدره ٣٧,٥٠٠ فرنك ورتبة جنرال . أو

ثالثاً : أن يقوده ستانلي هو وشعب المديرية إلى الركن الشمالي الشرقي لبحيرة فيكتوريا حيث يقيمون هناك ، ويؤسسون عدة محطات على طول الطريق إلى ممباسا ، وبذلك يعملون في خدمة شركة شرق أفريقيا البريطانية IBEA ، وتعهد ستانلي بأن يجلب من ممباسا باخرتين لمساعدة أمين على شن الحملات ضد مملكتي أوجنده وأونيورو ؛ فإذا ما تم الغزو بنجاح ، صارت لأمين مديرية جديدة يمكن استخدامها كقاعدة لاسترداد المديرية الاستوائية السابقة ،

Casati, op. cit., vol. II., p. 161.

(٢)

Stanley, op. cit., t. I, pp. 379-80; Pensa, L'Egypte et le (١) Soudan Egyptien, Paris 1895, p. 308.

الباب واسعاً أمام التأويلات والتخمينات ، وزاد من عدد الساخطين بعد أن سرت شائعة بأنه تم التوقيع على معاهدات انتقلت المديرية بمقتضاها إلى أيدي الأجانب ، ولم يكن في وسع أحد قبول ذلك . فإن محطات المديرية كانت منظمة تنظيمياً جميلاً ؛ وكانت بمثابة مراكز للحضارة والنظام في قلب القارة الافريقية ؛ ففي دوفيليه - على سبيل المثال - كان هناك مسجد ومدارس وحدائق عامة ، وكان المسجد والمدارس مشيدة بالطوب ، وكان يشرف عليها شيخ من الأزهر أوفدته القاهرة لتعليم الصبية ، كما كان بمثابة المرشد الديني ورجل القانون والشرعية في المحطة (٣) .

فلما قدم مونتني - جفسون مساعد ستانلي إلى محطة تنقورو (ماهاجي الحالية) في ٢٣ يونيو ١٨٨٨ واجتمع بالعساكر لاستطلاع رأيهم حول مقترحات ستانلي المقدمة باسم الخديو لم ينل منهم أكثر من أنهم يدينون بالطاعة والولاء للباشا ، وأنهم سوف ينفذون ما يأمرهم به ؛ أي أن الباشا ترك الأمر لرجاله وترك أولئك الأمر له . ولكن فيما بينهم كان الأمر مختلفاً تماماً ؛ فقد كانوا يتحدثون عن صعوبة الطريق والمخاطر التي سوف يتعرض لها الأطفال واحتمال بيعهم للانجليز الذين تربطهم بالباشا علاقات ودية وثيقة ؛ ولم تسيطر هذه الأفكار على محطة تنقورو وحدها بل انتشرت بسرعة بين جميع المحطات حيث أخذ الناس - وقد تملكهم الغضب واليأس -

يتصرف باسم أمين باشا ويعقد مع الشركة البريطانية اتفاقاً تتسلم بمقتضاه المديرية الاستوائية على أن يخدم فيها أمين كحاكم أوروبي (١) .

مهما يكن من أمر ؛ فإنه خلال الفترة التي أقام فيها ستانلي في نساي ، استطاع أن يتعمق قليلاً في شؤون المديرية ، وأن يدرك أنها ليست مطابقة تماماً للأحوال التي وصفت له من قبل ، ولكن لم يكن لديه الفراغ الكافي لبحث هذا الأمر ؛ فقد كان شديد القلق على القوة الرئيسية من الحملة التي خلفها وراءه في يامبوياء بدولة الكونجو . وبالفعل عاد للبحث عن طابور المؤخرة في أول يونيو ١٨٨٨ ، وهناك علم أن أحد ضباط الحملة لقي مصرعه على أيدي رجال تيبو - تيب .

وأخيراً وفي أول يناير ١٨٨٩ كان في (فور بودو) Fort Bodo بدولة الكونجو لما وصله كتاب من أمين باشا ومعه تقرير مطول من مونتني - جفسون أبلغه فيه أن بعض الضباط المصريين قد احتجزوا أمين باشا كرهينة خشية أن يرحل عن المديرية وخشية أن يقوم بتنفيذ طلبات ستانلي الذي يعد في نظرهم «مغامر أفاك» (٢) .

وفي الحقيقة أدى مجيء ستانلي إلى المديرية الاستوائية إلى تعقيد الأمور ؛ فلم يدر بخلد أحد أن ساعة الانقاذ قد دنت بقدر ما بدأوا يرتابون فيما دار سرّاً بين أمين وستانلي في نساي ، مما فتح

Cocheris, op. cit., p. 357.

Sabry, Le Soudan Egyptien, p. 153.

(٢)

(٣)

Langer, op. cit., vol. II, p. 115.

(١)

واعتقاله . وكان من الجائز أن تقع كارثة في تلك اللحظة ، إذ تحمس الجنود وصوبوا البنادق نحو صدر المدير ، واستولوا على مخزن الأسلحة ، ورفضوا القيام بنوبات الحراسة الليلية على مقر المدير .

وفي اليوم التالي غادر لابوره ووصل إلى دوفيليه في ١٩ أغسطس وهناك ألقى القبض عليه هو والصيدلي اليهودي فيتاحسان وأطلق سراح جفسون باعتباره ضيفاً . وكانت ثورة من نوع عجيب ، لأنها ربما كانت الثورة الوحيدة المعروفة في تاريخ الثورات التي قامت للاحتفاظ بالوضع القائم (٣) !

وتفصيل ذلك أن الأحداث المؤلمة التي وقعت في لابوره أدت إلى ازدياد حركة التمرد واشتدادها ؛ فقام فضل المولى بمساعدة ضابط آخر يدعى أحمد الدنكالي باحتلال دوفيليه وأعلن نفسه (منقذ المديرية) ، لأن أمين باشا سوف يقودها بسوء إدارته ومؤامراته إلى الخراب .

ومن دوفيليه سارت بعثة تتكون من ستة ضباط وموظفين برئاسة أحمد الدنكالي إلى تنقوروحيث شرحوا أهداف الثورة للجنود هناك ، وكيف أنها تهدف إلى تأمين المديرية وتحقيق النظام والعدالة لكل فرد ، وزعموا أن أمين باشا يتآمر على بيع المديرية للانجليز ، ثم عرجت البعثة على مسوا في ١٣ سبتمبر ونقلت منها الثلاثين صندوقاً من

يتابهم الشك في كل شيء^(١) ؛ واعتقدوا أن هدف ستانلي هو أن يقودهم إلى المعسكرات في مصر رغم أنفهم بعد أن سعدوا بحياة الحرية والاستقلال مع نسايمهم وفي مزارعهم^(٢) .

لذلك لم يكذ يغادر أمين محطة تنقورو برفقة جفسون لزيارة المحطات الأخرى وتلاوة منشور الخديو ، حتى ثار قائد المحطة سليمان آغا ، وجمع الضباط والموظفين ، وأثارهم ضد المسيحيين ، وأرسل إلى فضل المولى آغا قائد محطة فاتيكو يعرض عليه التحالف معاً في سبيل الأمن المشترك ، ولمنع الشرور التي يوشك الباشا أن يجلبها للمديرية ؛ وطلب منه أن يسيطر على المحطات الشمالية بينما يتكفل هو - أي سليمان آغا - بالمحطات الجنوبية في وادلاي ومسوا وغيرها .

وحدث أنه لما وصل أمين في ١٣ أغسطس ١٨٨٨ إلى محطة لابوره ، وتلا جفسون منشور الخديو على الجنود ، وترجمه لهم أمين ، طلب منهم إبداء رأيهم ؛ فانبرى له أحد الجنود وطلب عدم تحديد موعد للانسحاب إلى أن يتم الحصاد ، وأن هذه ليست الطريقة الصحيحة التي يعامل بها جنود الخديو ، وأن هذا المنشور لا بد وأن يكون مزوراً ، لأنه على الخديو أن يقودهم إلى بر الأمان لا أن يتركهم وشأنهم يقررون مصيرهم بأنفسهم . وهنا أمسكه أمين بغتة من خناقه ، وأمر ياوره بتجريد الجندي من سلاحه

Symons, Emin Governor of Equator, London 1950, p. (٣) 37.

Casati, op. cit., vol. II, p. 169.
Darcy, op. cit., p. 254.

(١)
(٢)

على أم درمان من الجنوب ؛ فرأى أن يكون هو
البادىء بالهجوم .

ومن غير المستبعد أن يكون الهدف من وراء
حملة عمر صالح هو الحصول على الكميات
الكبيرة من العاج التي كانت مخزنة في المديرية
الاستوائية ؛ فإن التجار السودانيين من الدناقلة
والجعليين الذين عملوا مدة طويلة في تلك
المديرية في تجارة العاج والرقيق ، والذين انقلبوا
على الإدارة المصرية ، وانسحبوا مع كرم الله عام
١٨٨٥ ، وعادوا إلى أم درمان - هؤلاء بلا شك
كشفوا للسلطات في العاصمة عن أهمية
المديرية ، إذ بالإضافة إلى العاج تعتبر المديرية
مصدراً هاماً من مصادر الرقيق الذي كان يهم
ال خليفة الاستحواذ عليه لتجنيده في جيشه ،
وكانت التعليمات الصادرة إلى عمر صالح تنص
على الاستيلاء على المديرية الاستوائية والقبض
على أمين باشا ورجاله .

ظهر عمر صالح أمام محطة لادوفي ٤ صفر
١٣٠٦ هـ (١١ أكتوبر ١٨٨٨) فاحتلها دون أن
يطلق رصاصة واحدة لأنها كانت مهجورة تماماً .
واستقر رأي عمر بعد ذلك على إرسال ثلاثة رسل
إلى دوفيليه لدعوة أمين باشا للتسليم ؛ وأرسلت
دعوة مماثلة إلى حامية الرجاف التي رفضتها
وعمدت إلى تقوية استحكاماتها وطلبت المدد من
وادلاي ودوفيليه . وقد وعد عمر صالح في رسائله
إلى أمين بالعفو العام إذا سلم المديرية^(١) . وقد

البنادق التي أتى بها ستانلي ، وتقدمت البعثة إلى
وادلاي مقر الحكومة ، حيث عقد مجلس عام من
الضباط والموظفين بقصد تأييد الثورة وعمل
برنامج لتقديمه إلى الجمعية العمومية التي تقرر
عقدها في دوفيليه في ٢٤ سبتمبر ، والتي توصلت
إلى قرار بعزل أمين من الحكمديرية وياوره
والصيدلي فيتاحسان . وكان أمين معتقلاً لما
تسلم قرار العزل موقفاً عليه من مندوب حكومة
الثورة الصاغ حامد أغا الذي رقاها مجلس الثورة
إلى رتبة بكباشي .

ولكن احتمال قرب عودة ستانلي أثار قلق
الثوار ؛ فاتفقوا سراً على منع تسرب أخبار الثورة
إليه حتى يضعوا أيديهم على الذخائر التي بعث
بها الخديو معه ، وقرروا أيضاً نقل المعتقلين
الثلاثة إلى المحطات الشمالية لضمان عدم
فرارهم . وقامت لجنة بجرد حسابات الإدارة
برئاسة مراقب الحسابات ، ثم قررت تفتيش منزل
كل من أمين والصيدلي فيتاحسان للبحث عن
الأقمشة والذخائر ، وصودرت محتوياتهما تمهيداً
لنقلها إلى دوفيليه . وأسرعت اللجنة بالعودة إلى
دوفيليه بعد أن وصلت أنباء عن غزو الأنصار
للرجاف في ثلاث بواخر بقيادة عمر صالح . وقد
تضاربت الآراء حول سبب قدوم تلك الحملة ؛
فقال إن أنباء حملة ستانلي بلغت مسامع خليفة
محمد أحمد في أم درمان ؛ وبالفعل البعض في
تصويرها ، فتحوّلت إلى جيش كبير يقوده الباشا
الأبيض ، وخشى الخليفة أن يزحف هذا الباشا

(١) انظر صورة خطاب عمر صالح إلى أمين باشا في :

Mounteney-Jephson, Emin Pasha and the Rebellion at the Equator, London 1890, p. 481.



اضطرب الثوار في دوفيليه وقبضوا على رسل عمر صالح وأعدموهم ، ولجأوا إلى أمين باشا يطلبون منه النصيح ، ولكنه رفض أن يتحمل أية مسؤولية . وكان من رأيه الانسحاب جنوباً إلى تنقورو وتقوية الاستحكامات فيها لأن إحراز أي نصر في المحطات الشمالية بات أمراً مشكوكاً فيه^(١) .

وزحف عمر صالح على الرجاف واستولى عليها في ١٣ صفر ١٣٠٦ (١٩ أكتوبر ١٨٨٨) وغنم منها كميات من الأسلحة والذخائر والعاج وخمسائة من الرقيق .

وهنا قررت الكتيبة الأولى من جيش المديرية استرداد الرجاف ، فخرجت بقيادة المدير الجديد حمد آغا الذي كان يهيمه انقاذ أسرته وأسر الضباط الآخرين الذين وقعوا في الأسر ، ولكن عمر صالح نصب كميناً لجنود الكتيبة ومزقها شر ممزق وقتل حمد آغا وكل ضباطه ، وفر خمسون جندياً إلى دوفيليه^(٢) .

ولما وصلت أنباء هزيمة حمد آغا إلى دوفيليه في ١٤ نوفمبر ، اجتاحت الرعب المحطة ، وتقرر أن يتولى سليم بك مطر وهو من أكفأ الضباط السودانيين إدارة المديرية ، وأن يتم نقل النساء والأطفال وأمين باشا والضباط الإيطالي كازاتي ومساعد ستانلي مونتني - جفسون إلى وادلاي بأسرع ما يمكن . وفي ٢٥ نوفمبر ظهر عمر صالح أمام دوفيليه ، وأخفق في اقتحام الأسوار وارتد

عنها بعد أن تكبد خسائر فادحة^(٣) . ولكن الشائعات انتشرت في وادلاي بأن دوفيليه سقطت في أيدي الأعداء ، واستنتج البعض أن أولئك الأعداء لا بد وأن يظهروا أمام وادلاي بين وقت وآخر ، وكان أمين باشا وكازاتي ومونتني جفسون قد أطلق سراحهم في ١٧ نوفمبر بعد هزيمة حمد آغا أمام الرجاف ومصرعه ؛ فلما انتقلوا إلى وادلاي ، استقبل أمين استقبلاً حافلاً رغم أنه ظل في السجن طوال ثلاثة أشهر بتهمة إساءة إدارة المديرية . وتولى أمين على الفور إدارة محطة وادلاي . وفي مساء ٤ ديسمبر وصل إلى المحطة قائد محطة بورا التي تقع إلى الشمال من وادلاي يحمل أنباء سقوط دوفيليه في أيدي الأعداء^(٤) . وكان الوضع في وادلاي بالغ الحرج وميؤساً منه تماماً ؛ فلم تكن المحطة محصنة تحصيناً كافياً يسمح لها بصد أي هجوم كبير عليها ، ثم أن الأراضي المحيطة بها لا تصلح للقتال ، هذا فضلاً عن قلة المخزون من الغلال في المخازن ، وضرورة الانتقال إلى النهر للحصول على المياه . لذلك عقد مجلس تقرر فيه إخلاء وادلاي والانسحاب إلى تنقورو على بحيرة ألبرت . وبدى في الانسحاب في اليوم التالي (٥ ديسمبر) بدون ترتيب أو نظام ، وخلفت الحامية وراءها المؤن والأثاث ؛ ولكن قبل أن يتم الانسحاب تماماً ، وصلت الباخرة (الخديو) تحمل أنباء انتصار سليم بك مطر في دوفيليه ، وانسحاب الأعداء إلى الرجاف . وكان

Mounteney-Jephson, op. cit., pp. 327-28.

(٣)

Casati, op. cit., vol. II, pp. 189-90.

(١)

Ibid, pp. 315-16.

(٤)

Mounteney-Jephson, op. cit., pp. 285-86; Casati, op. cit., vol. II, p. 191.

ستانلي إلى أمين وجفسون في تنقورو تحدد لهم مهلة عشرين يوماً للاتصال به ، وحذرهم أنه في نهاية هذه المدة سوف يسير جنوباً على الفور ؛ ووصف الحالة التي وجد عليها طابور المؤخرة الذي خلفه وراءه وصفاً مؤلماً ، وألقى بأخطائه على عاتق أمين ورجاله^(٤) !

ولم يكن لبناء قرب وصول ستانلي أي تأثير في معسكر وادلاي ؛ فالضباط والعساكر والموظفون كانوا لا يزالون يعانون من صدمة اعتداءات الأنصار على سلطة الحكومة ؛ حقيقة أنهم استطاعوا قهر العدو واجباره على الانسحاب ، غير أنه كان نصراً فادح الثمن ، استنفذ كل وسائل الدفاع عن المديرية ، كما أنه شجع الأهالي على الخروج على سلطة الحكومة والاشتباك معها . ثم نشأت صعوبة الاتصال بستانلي ؛ فقد رفض أمين باشا بوصفه حكمداراً للمديرية ومعيناً من قبل الخديو ، أن يقوم بدور الوسيط بين معسكر الثوار في وادلاي ورئيس حملة الانقاذ ، لأنه بذلك يعترف بمركز الثوار الذين كانوا بدورهم يدركون تماماً أنهم عاجزون عن التفاوض مع ستانلي لعدم شرعية سلطتهم .

وفي ٩ فبراير ١٨٨٩ ، أفلح كازاتي في اقناع أمين باشا بمباشرة سلطاته في تنقورو ، واتصل أمين بستانلي ونقل إليه أبناء معسكر الثوار في وادلاي بقيادة فضل المولى محمد الذي عزل سليم بك مطر من القيادة ، وعين مكانه فضل

سليم قد قرر إخلاء دوفيليه وتركيز كل جيشه في وادلاي ، وأبلغ أمين بهذه الخطة ، ولكن الباشا أصر على تنفيذ الانسحاب إلى تنقورو^(١) ، ورفض الموافقة على ترتيبات الضابط السوداني الشجاع سليم مطر . وهنا تقدم تسعة من الضباط والموظفين بطلب اعتقال أمين باشا وتقديمه للمحاكمة أمام المحاكم الخديوية بتهمة إخلاء وادلاي بطريقة مشينة وتدمير المخازن بها بالإضافة إلى التهم التي وجهت إليه في اجتماع الجمعية العمومية في دوفيليه في ٢٤ سبتمبر ، كما طالبوا أيضاً بإعدام العصبة المتآمرة معه وتضم كازاتي ومونتني - جفسون والصيدلي اليهودي فيتاحسان^(٢) .

وانقسم المجتمعون على أنفسهم قسمين : قسم يمثل المعتدلين كان يرى وجوب إخلاء المديرية ولو أنه وافق مع ذلك على عزل أمين باشا . وقسم المعارضين برياسة اليوزباشي فضل المولى محمد وكان يعارض في التخلي عن المديرية . وقد فاز المعتدلون برياسة سليم بك مطر في التصويت وتقرر إرسال وفد إلى ستانلي لابلague برغبتهم في السير معه إلى زنجبار^(٣) .

وانتهز أمين باشا هذه الفرصة ليكرس وقته لهوايته المفضلة وهي دراسة الحيوان والنبات ، هذه الدراسة التي صادفت إعجاباً كبيراً في أوروبا رغم أنها كانت من أسباب سوء إدارته للمديرية . وفي ٢٦ يناير ١٨٨٩ ، وصلت رسائل من

Mounteney-Jephson, op. cit., pp. 450-53.

(٣)

Ibid., pp. 331-32.

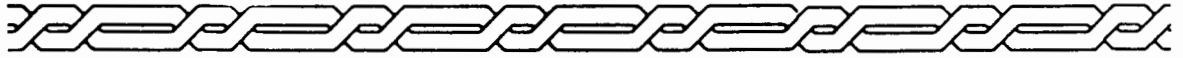
(١)

Casati, op. cit., vol. II, pp. 188-212.

(٤)

Vatin, La Verité sur Fachôda, Chaumont 1932, p. 35.

(٢)



المولى بعد ترقيته إلى رتبة قائم مقام ؛ وعقد مجلس عسكري تأيد فيه قرار الجمعية العمومية بعزل أمين باشا وصدر الحكم ضده وضد كازاتي بالإعدام .

وفي قرية كفالتي على بحيرة ألبرت عقد مجلس من الرجال البيض مع رؤساء الأركان في المديرية المواليين لأمين لبحث الاجراءات الواجب اتباعها ومناقشتها ، وتقرر إخلاء المديرية بصفة نهائية واططار المحطات بهذا القرار .

وفي ١٩ فبراير أصدر ستانلي نداءه من كفالتي إلى موظفي وضباط حامية وادلاي بأن من يود منهم العودة معه إلى مصر ، عليه أن يتكفل بدواب الحمل والحمالين لنقل الأطفال والمهمات والأسلحة والذخائر ، وأبلغهم أنه مسؤول عن إيجاد طريق لهم فحسب . ولم يتلق ستانلي أي رد على ندائه ، وفي الواقع لم يكن ينتظر سوى شفاء بعض اتباعه من الزنجباريين لكي يستأنف السفر في الوقت الذي حدده في ذهنه ، إذ لم يكن يهمه في شيء إنقاذ حامية وادلاي طالما أنه وضع يده على أمين باشا وانتزعه من المديرية أنتزاعاً .

تحدد موعد السفر في ١٠ إبريل ١٨٨٩ ، ولكن حدث في ٢٥ مارس أن وصل خطاب يحمل توقيعات ٣٦ ضابطاً من بينها توقيع فضل المولى محمد يجمعون فيه على رغبتهم في العودة إلى مصر ؛ فأسرع ستانلي بعقد اجتماع حضره أمين باشا ، وتقرر فيه أن يترك أهالي وادلاي

يواجهون مصيرهم المحتوم ؛ واعتمد أمين هذا القرار بحجة أنه بات غير مسؤول عن أي شيء ، وأنه لم يباشر مهام منصبه في ٩ فبراير إلا لمجرد إيجاد وسيلة للخروج من المديرية .

وأظهر بعض الضباط قلقهم من ترك زملائهم يواجهون وحدهم عدواً لا يرحم ؛ فقرروا العودة إلى وادلاي ليشاركوهم مصيرهم . وهنا أبدى أمين تردداً في الرحيل ، حقيقة لم يكن تواقفاً للاتصال بمعسكر الثوار في وادلاي ، ولكنه كان يشعر بالخجل من ضياع سلطته ووجوده تحت رحمة البريطانيين^(١) . وتوهم ستانلي وجود مؤامرة لانتزاع أسلحته وذخائره ؛ فقرّر الرحيل فوراً^(٢) ، وهدد أنه في حالة المقاومة أو رفض طاعة أوامره ، سوف يضطر إلى استخدام القوة للخروج بأمين باشا وأتباعه المخلصين ، وطلب من الباشا أن يأمر رجاله بأن يدينوا بالطاعة لستانلي وحده^(٣) .

وفي الساعة السابعة من صباح يوم ١٠ إبريل ١٨٨٩ تحركت القافلة بعد أن خلفت وراءها عموداً كثيفاً من الدخان وألسنة النيران تلتهم المعسكر . وبعد أكثر من أسبوعين فرّ من القافلة حوالي ٦٩ رجلاً ، فقد كان للاجراءات القاسية التي مارسها ستانلي في المعسكر قبيل الرحيل ، واضرام النيران في القرية عند الرحيل ، والتضحية بحامية وادلاي لتلقي مصيرها المحتوم ، كان لذلك كله أثره في نفوس الجنود والاتباع ، وأنزعج ستانلي حين نما إلى علمه أن

Stanley, op. cit., t. II, pp. 188-89; Cocheris, op. cit., p. (٣) 358.

Casati, op. cit., vol. II, p. 247.

(١)

Symons, op. cit., p. 42.

(٢)

وقد صادفت القافلة في طريقها نحو الساحل مشقات من الصعب أن توصف ، فضلاً عن أن سلوك الزنجاريين كان بالغ القحة لأنهم كانوا يزهون بأن إنقاذ الناس تم على أيديهم ، مما يعطيهم الحق في ارتكاب ما يشاءون من المظالم .

وفي ٨ مايو وصلت رسالة من سليم بك مطر - قاهر عمر صالح في دوفيليه - ذكر فيها أن الجنود والموظفين قد تجمعوا في مسوا وأنهم راغبون في مغادرة البلاد ، وتضمنت الرسالة أيضاً أنه لا يحمل أية ذخيرة بعد أن أجبرتهم حامية فضل المولى محمد في وادلاي على تسليمها ، وقال إنه يخشى أن يفتك الأهالي به وبرجاله ، وتوسل أن يتوقفوا لانتظاره .

ولكن ستانلي أصم أذنيه عن توسلات سليم بك ورد بأن سليم يمكنه اللحاق به عند جبل فيريكا Virika وبحيرة رويتان Ruitan إذا أسرع في السير ، ونسي ستانلي أو تناسى أن سليم ورجاله غير مسلحين وبالتالي لا يمكنهم اللحاق به لمسافة طويلة . وكانت فكرة صعود جبل فيريكا قد أثارت من قبل الرحيل في كفالتي ، وفضل الجميع أن تعبر القافلة نهر سمليكلي واتباع طريق أقل مشقة يؤمنهم هجمات قبائل الاونيورو المحاربة المعروفة باسم البناسورا Bannassura ، ولكن ستانلي تعمد أن يختار طريق صعود الجبل لكي يخلق سلسلة من العقبات في وجه سليم مطر .

كثيرين آخرين يودون اللحاق بزملائهم ؛ فقام على الفور بنزع سلاح الجنود المشتبه فيهم ، وأطلق في أثر الهاربين فصيلة من الزنجاريين الأشداء المسلحين تمكنت من قتل تسعة منهم ، ونفذ حكم الاعدام شنقاً في واحد منهم أمام القافلة كلها ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه الهرب من القافلة^(١) .

ونظراً لقلة عدد الحمالين ، فقد اضطر ستانلي إلى التخلص من بعض صناديق الذخيرة التي يبلغ عددها ٦٢ صندوقاً كانت الحكومة المصرية قد سلمتها له لكي يقدمها لحكومة المديرية ؛ وقام بدفنها سراً في الطريق في ليلة ٢٩ إبريل ، مع أن أمين كان يعلم أن حامية وادلاي كانت تعوزها الذخيرة ووسائل الدفاع ضد الأنصار والأهالي .

ولم يكن من مصلحة ستانلي وبالتالي وبالتالي مصلحة انجلترا ، إمداد حامية وادلاي بالذخيرة اللازمة لأنها لن تلبث وإن تتعرض لهجمات الأعداء ، وبذلك يمكن التخلص منها ، وتتحول المديرية الاستوائية بعد ذلك إلى ملك مباح أو أرض بلا مالك Res Nullius ، ويسري عليها ما سرى على بقية أجزاء الامبراطورية السودانية ، إذ كان يهم انجلترا أن تقع هذه المديرية في أيدي الأنصار على أن تبقى في يد المدير الألماني^(٢) .

ولا شك أن تنفيذ حكم الإعدام في الجنود الهاربين يدل دلالة واضحة على إصرار ستانلي الشديد على ضرورة إخلاء المديرية بأية وسيلة .

Deville, op. cit., p. 103.

(٢)

Casati, op. cit., vol. II, p. 257.

(١)

فيكتوريا في ١٩ أغسطس واتجهت إلى مقر الأرسالية التبشيرية الانجيلية في أوجنده ، حيث رحب بها المستر ماكاي ، وأبلغ ستانلي أن الصراع على أشده على طول ساحل زنجبار بين قوات الحكومة الألمانية والثوار العرب المسلمين . وحاول ماكاي اقناع ستانلي بتأجيل سفره حتى يتضح الموقف ولكنه كان مصمماً على استئناف الرحيل .

وفي ١٧ سبتمبر غادر مقر الأرسالية في طريقه إلى باجاموبو على ساحل شرق أفريقيا الألمانية ، وانضم إليه في الطريق مبشر فرنسي يدعى الأب جيرو Giraud وآخر ألماني يدعى الأب شينس Schynse^(٢) ، وكانا في طريقهما إلى زنجبار .

وفي ٦ ديسمبر وصلت القافلة إلى باجاموبو ، وكان في استقبالها الميجر فيسمان Wissmann المفوض الامبراطوري الألماني في شرق أفريقيا^(٣) . وبوصول أمين باشا إلى باجاموبو على الساحل ، باتت المديرية الاستوائية موزعة بين سلطتين : سلطة أنصار محمد أحمد المعروف بالمهدي في الشمال ومركزها الرجاف ، وسلطة حكومة الثورة في الجنوب برئاسة فضل المولى محمد ومركزها وادلاي . وبذلك أيضاً يكون ستانلي قد حقق المهمة التي عهدت بها انجلترا إليه ، وأثبت أنه جدير بالثقة التي وضعتها فيه

تمنعه ورجاله من اللحاق بالقافلة من ناحية^(١) ، وليتسنى لستانلي دراسة التكوين الطبيعي والجيولوجي للجبل من ناحية أخرى . أما حياة الرجال والنساء والأطفال الذين وضعتهم الأقدار تحت تصرفه ؛ فهي ليست عنده بذات قيمة . وكانت عملية صعود الجبل باللغة الصعوبة سقط خلالها كثير من النساء والأطفال صرعى من شدة التعب والأرهاق ، حتى بلغت القافلة في النهاية بحيرة رويتان بعد أن استطاعت صد الهجمات التي تعرضت لها من جانب الأهالي وقبائل البناسورا .

وبعدها ظهرت أمام القافلة ثلاثة طرق تؤدي إلى زنجبار ؛ فاختار ستانلي طريق بلاد نكولي Nkole الذي يعج بمائتي ألف مقاتل والذين كان يخشاهم وقتاً ما ، حتى أنه اضطر للسفر من زنجبار بحراً والدوران حول رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا ، والوصول إلى المديرية الاستوائية عن طريق الكونجو ليتجنب الاشتباك مع محاربي نكولي الأشداء . ومنح ملك نكولي القافلة حق المرور في بلاده والحصول على ما يحتاجون إليه من المواد الغذائية بشرط ألا يعتدوا على المزارع والقرى بعد أن شعر بتفوق الحملة عسكرياً .

وصلت القافلة في النهاية إلى شواطئ بحيرة

(٢) وضع الأب شينس كتابه بعد هذه الرحلة بعنوان : مع ستانلي وأمين باشا خلال شرق أفريقيا الألمانية .

Mit Stanley und Emin Pasha durch Deutsch Ostafrika, Köln, 1890.

Darcy, op. cit., p. 255; Langer, op. cit., vol. II, pp. 115-16.

(١) للوقوف على مصير سليم بك مطر ورجاله بعد تخلي ستانلي عنهم راجع دراسة للمؤلف بعنوان : أوجنده قبل الحماية البريطانية منشورة بمجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة العدد الثالث ١٣٩٧ - ١٣٩٨ هـ ، ص ٦٣ - ٧٩ .



الشركة ، وقدم له العرض مرة أخرى لما وصل إلى باجاموبو^(٢) .

وعلى الفور غادر ستانلي باجوموبو إلى القاهرة فوصلها في ١٦ يناير ١٨٩٠ ، ثم رحل إلى لندن بعد أيام حيث كان لورد سولسبري في انتظاره ليستأنس برأيه عند إعداد المعاهدة الانجليزية - الألمانية التي وقعت في أول يوليو ١٨٩٠ ، والتي منحت انجلترا مفتاح الباب الجنوبي لمصر .

وقد لقي أمين باشا أسوأ معاملة على يد ستانلي ، وشهد بذلك كل من المستكشف الايطالي كازاتي والمبشر الألماني الأب شينس والصيدلي اليهودي فيتاحسان ، حتى أن أمين كتب إلى أحد أصدقائه في إبريل ١٨٩٠ يقول : لقد كانت معاملة ستانلي لي هي أحد الدوافع التي دفعتني للدخول في خدمة ألمانيا^(٣) .

وزارة الخارجية البريطانية ولورد أيدسليه ، لأن انتزاع أمين باشا من المديرية كان بمثابة ضربة قاصمة أصابت النفوذ الألماني في شرق افريقيا ، إذ أن المديرية الاستوائية صارت بعد ذلك ملكاً مباحاً أو أرضاً بلا مالك من حق أول من يضع قدمه فيها ، وحتى لو سقطت كلها في أيدي أنصار محمد أحمد ، فلن يتغير وضعها عن وضع بقية أجزاء السودان التي كانت تخضع لمصر^(١) .

ويلاحظ أنه في طريق العودة إلى الساحل ، وقع ستانلي عدة معاهدات مع زعماء القبائل في المنطقة الواقعة بين بحيرتي فيكتوريا وادوارد ، إذ كان يأمل في إقناع أمين باشا بالعمل في خدمة شركة IBEA ، ولما توقفت القافلة في مركز الارسالية التبشيرية الانجيلية في ٢٨ أغسطس ، عرض ماكاي على أمين أن يعمل لحساب

(٣) Cocheris, op. cit., pp. 360-61.

(٢) Langer, op. cit., vol. II, p. 115.

(١) Darcy, op. cit., pp. 254-55.

المصادر والمراجع

مراجع عربية

- اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار بولاق مصر ١٣١٢ هـ - الجزء الثاني .
- محمد فؤاد شكرى : الحكم المصري في السودان - القاهرة ١٩٤٧ .
- نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته القاهرة ١٩٠٣ - الجزء الثالث .

تقارير رسمية

مجموعة Cairint وهي الصورة المختصرة لاسم Cairo Intelligence وتضم تقارير قدمها بعض من عاصروا الاحداث في السودان الى ادارة المخابرات بالجيش المصري وكانت تخضع للانجليز ؛ فقامت بتنظيمها وتصنيفها ، وقد اعتمدنا على تقريرين منها وهما :

— Report of Emin Pasha , 1895 .

وهو من مجموعة Cairint قسم ٣ صندوق ١٤ قطعة ٢٣٦ .

— Statement Respecting the Equatorial Provinces , 1890 .

وهو من مجموعة Cairint قسم ٣ صندوق ١٤ قطعة ٢٣٧ . وهما محفوظان بدار الوثائق المركزية بالخرطوم - السودان .

مراجع اجنبية

- Allen, B.M., Gordon and the Sudan, London 1931.
- Archer, T., The War in Egypt and the Sudan, London 1886.
- Casati, G., Ten Years in Equatoria and the Return with Emin Pasha, London & New York, 1891, vol. II.
- Cocheris, J., Situation internationale de l’Egypte et du Soudan, Paris 1903.
- Cromer (Lord), Modern Egypt, New York 1908, 2 vols.
- Darcy, J., La conquête de l’Afrique, Paris 1900.
- “Deherain, H., Le Soudan Perdu et Reconquis,” — Histoire de la Nation Egyptienne, edité par G. Hanotaux, Tome VII, Paris 1940.



- Deville, V., Partage de l'Afrique, Paris 1898.
- Elton (Lord), General Gordon, London 1954.
- Holt, P.M., The Mahdist State in the Sudan, Oxford 1958.
- Junker, Travels in Africa 1882-1886, London 1892.
- Langer, W., The Diplomacy of Imperialism, New York 1935, 2 vols.
- MacMichael, H.A., The Anglo-Egyptian Sudan, London 1934.
- McDermott, British East Africa, London 1893.
- Mounteney-Jephson, A.J., Emin Pasha and the Rebellion at the Equator, London 1890.
- Oliver, R., The Missionary Factor in East Africa, London 1952.
- Pensa, H., L'Egypte et le Soudan Egyptien, Paris, 1895.
- Perham, M., Lugard, years of adventure, London 1956.
- Sabry, M., L'Empire Egyptienne Sous Ismail, Paris 1933.
- Le Soudan Egyptien, Le Caire 1947.
- Schweinfurth, Atzel, Hartlaub & Felkin, Emin Pasha in Central Africa, London 1888.
- Shukry, M.F., Gordon at Khartoum, Cairo 1951. The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan, Cairo 1938.
- Stanley, H.M., Dans les ténèbres de l'Afrique, Paris 1890, Tome I.
- Symons, P., Emin, Governor of Equator, London 1950.
- Theobald, A.B., The Mahdiya, London 1951.
- Vatin, F., La Verité sur Fachôda, Chaumont 1932.
- Wingate, F.R., Mahdiism and the Egyptian Sudan, London 1899.

دوريات

جريدة القاهرة الحرة



